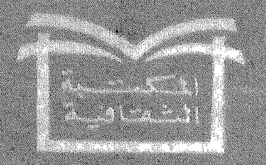


علوم التفسير

د. عبدالله محمود شحاته

٣٨



المكتبة الثقافية

٣١٦

علوم التفسير

د. عبدالله محمود شحاته



الهيئة المصرية العامة للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله نستعينه ونستهديه ، ونسأله الهدى والرشاد والتوفيق والسعاد.
(من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فما له من هاد) (الرعد/٣٣) .

أما بعد

فهذه دراسة محررة عن التفسير وعلومه حاولت أن أستفيد فيها من دراسة الأئمة السابقين والعلماء الباحثين الذين أبلوا بلاء حسنا وتركوا من خلفهم ثروة علمية هائلة ، وكنوزا ثقافية زاخرة .

وكان قصارى جهدى اننى درست هذا التراث وعرفت به فى إسلوب ميسر آمل ان يستفيد به القارىء ، والراغب فى دراسة القرآن وعلومه ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

د. عبد الله شحاته



القرآن والتفسير

أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين ، وجعله مصدراً للهداية وناموساً للفلاح والرشاد ، قال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) (المائدة / ١٥ ، ١٦) . وقد جدت في أيامنا عوامل متعددة جعلت كثيرين منا ، يتطلعون الى حياة أفضل ، ويتلمسون سبل الاصلاح ، وميادين التقدم

والازدهار ونرى أن نهضة المسلمين لا تكون صحيحة عن تجربة ، ولا سهلة متيسرة ، ولا رائعة مدهشة . الا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ، ونظمه الحكيمة التى روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشرى .

وبدهى أن العمل بهذه التعاليم لا يكون الا بعد فهم القرآن وتدبره ، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد ، والالمام بمبادئه ، عن طريق تلك القوة الهائلة التى يحملها أسلوبه المعجز وهذا لا يتحقق الا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن . « وهو ما نسميه بعلم التفسير » .

خصوصا فى هذه العصور الأخيرة التى فسدت فيها ملكة البيان العربى ، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم .

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لاصلاح البشر ، وانقاذ الناس ، وتكريم الانسان .

وبدون التفسير لايمكن الوصول الى هذه الكنوز والذخائر ، مهما بالغ الناس فى ترديد ألفاظ القرآن ، وتوافروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التى نزل عليها .

وهنا نلمح السر فى تأخر المسلمين فى هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف فى أيديهم ، ووجود ملايين الحفاظ بين ظهرانيهم ، وعلى رغم كثرة عددهم ، واتساع بلادهم ، فى حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحاً مدهشا ، كان ومازال موضوع اعجاب التاريخ والمؤرخين . مع أن أسلافنا أولئك كانوا فى قلة من العدد ، وضيق من الأرض ، وخشونة من العيش ، ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ، ومع أن حفَّاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة .

أجل ان السر فى ذلك هو أنهم توافروا على دراسة القرآن ، واستخراج كنوز هدايته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية ، وملكاتهم السليمة العربية من ناحية ، وبما يشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله من ناحية أخرى .

وعلى ذلك كان همهم الاول هو القرآن الكريم يتلونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ويهتدون بهديه فى يقظة بهذا وحده صفت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ، لأن الروح الانسانى هو أقوى شيء فى هذا الوجود . فمتى صفى وتهذب ، وحسن توجيهه وتعليمه ، أتى بالعجب العجاب .

وكذلك أتت الأمة الاسلامية بالعجائب فى الهداية والارشاد وانقاذ العالم واصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر والتأييد ، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والاصلاح فى ذلك العهد : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب .

أما غالب المسلمين اليوم . فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها . وأنغام يلحنونها ، فى المآتم والمقابر والدور . وبمصاحف يحملونها أو يودعونها بركة فى

البيوت . ونسوا أن بركة القرآن العظمى انما هى فى تدبره وتفهمه ، وفى الجلوس اليه والاستفادة من هديه وآدابه ، ثم فى الوقوف عند أوامره ومراضيه ، والبعد عن مساخطه ونواهيه والله تعالى يقول : (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) (ص / ٢٩) ويقول سبحانه : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (محمد / ٢٤) ويقول جل ذكره : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر) (القمر / ١٧) .

فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه ، أو بالحيران يمد يده ليقترض من الآخرين ، ورصيده كاف لو مد يده اليه .

ألا ان آخر هذه الأمة لا يصلح الا بما صلح به أولها ، وهو أن يعودوا الى كتاب الله يستلهمونه الرشد ، ويستمنحونه الهدى ، ويتدبرون هدايته وينبعثون مع روحه العامة ، وأهدافه السامية ، وآفاقه العالية فالقرآن روح وحياة وبعث واصلاح ، وقد أحيا نفوس المسلمين الأولين ، وأعلى

هممهم وهذب أخلاقهم ، وأرشدهم الى الانتفاع بقوى الكون ومنافعه . وكان من وراء ذلك أن مهروا فى العلوم والفنون والصناعات . كما مهروا فى الأخلاق والآداب والاصلاح والارشاد ، ووصلوا الى غاية بزوا فيها كل أمم الدنيا . حتى قال بعض فلاسفة الغرب فى كتابه (تطور الأمم) مانصه : (ان ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم الا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون فى جيل واحد) .

انواع التفسير

ينقسم التفسير الى نوعين على وجه الاجمال (أحدهما) تفسير جاف لايتجاوز حل الألفاظ واعراب الجمل وبيان ما يحتويه نظم القرآن الكريم ، من نكات بلاغية واشارات فنية ، وهذا النوع أقرب الى التطبيقات العربية منه الى التفسير وبيان مراد الله من هداياته .

(النوع الثانى) تفسير يجاوز هذه الحدود ، ويجعل

هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن ، وتعاليم القرآن وحكمة الله فيما شرع للناس فى هذا القرآن ، على وجه يجتذب الأرواح ، ويفتح القلوب ويدفع النفوس الى الاهتداء بهدى الله . وهذا هو الخليق باسم التفسير وفائدة هذا التفسير هى التذكر والاعتبار ، ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ليفوز الأفراد والجماعات بخير الدنيا والآخرة .



التفسير والتأويل

التفسير فى اللغة الايضاح والتبيين ومنه قوله تعالى :

(ولا يأتونك بمثل الاجئناك بالحق وأحسن تفسيرا)

(الفرقان ٣٣) ، أى بيانا وتفصيلا والتفسير فى الاصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

وقال بعضهم التفسير فى الاصطلاح : علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب

مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفصلها وحلالها وحرامها ووعدها ووعيدها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها (١) .

التأويل :

والتأويل مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية . قال صاحب القاموس : (أول الكلام تأويلا وتأوله : دبره وقدره وفسره) .

ومنه قوله تعالى : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله) وكذلك جاءت آيات كثيرة فيها لفظ التأويل ، ومعناه فى جميعها البيان والكشف والايضاح ـ أما التأويل فى اصطلاح المفسرين فقد تعددت أقوال العلماء فيه ، فبعضهم يرى أن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان ومترادفان ، ومنه دعوة رسول الله صلى الله

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/١٧٤ .

عليه وسلم لابن عباس (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) .

وبعضهم يرى أن التفسير يتعلق بالرواية والتأويل يتعلق بالدراية وقال قوم ما وقع مبيناً فى كتاب الله ومعينا فى صحيح السنة سمى تفسير ؛ لأن معناه قد ظهر ووضح وليس لأحد أن يتعرض اليه باجتهاد ولاغيره بل يحمله على المعنى الذى ورد لايتعداه ، والتأويل ما استنبطه العلماء العاملون لمعانى الخطاب الماهرون فى آلات العلوم (١) .

وقيل التفسير : أكثر ما يستعمل فى الألفاظ ومفرداتها، والتأويل : أكثر ما يستعمل فى المعانى والجمل .

وقيل التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الاشارة وقد اشتهر هذا عند المتأخرين قال الآلوسى : (كل ما قيل مما ذكرنا ومما لم نذكر مخالف للعرف اليوم . اذ قد تعورف عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل

---

(١) الاتقان ٢/١٧٣ .

معان قدسية ، ومعارف ربانية ، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين . والتفسير غير ذلك) اهـ . فأنت ترى أنه جعل التأويل خاصاً بما كان مأخوذا بالاشارة أى الفقه والفهم للمعانى البعيدة أو قراءة ما بين السطور ومعرفة ما تشير اليه الآيات ـ أما التفسير فانه خاص بما كان مفهوما بطريق العبارة أى الشرح والايضاح لمدلول ألفاظ القرآن الكريم .

ونحن نميل الى ترجيح القول القائل بأن التفسير ماكان راجعا الى الرواية والتأويل ماكان راجعا الى الدراية .

لأن التفسير معناه الكشف والبيان واعتماد ذلك على الكتاب والسنة وما أثر عن الصحابة ، أما التأويل فملحوظ فيه الاجتهاد فى ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل وبذل الجهد فى استنباط المعانى من الكتاب العزيز .

وبعبارة أخرى أكثر اعتماد التفسير على النقل ، وأكثر اعتماد التأويل على العقل .

وحين نفسر القرآن ، فلا غنى لنا عن الاعتماد على النقل والعقل كلاهما .

الفصل الأول

تاريخ التفسير

١ ـ التفسير فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم
٢ ـ التفسير فى عهد الصحابة
٣ ـ التفسير فى عهد التابعين
٤ ـ التفسير فى عهد تابعى التابعين
٥ ـ تفسير ابن جرير الطبرى
٦ ـ التفسير النقلى والعقلى
٧ ـ التفسير بين القديم والحديث
٨ ـ الامام محمد عبده
٩ ـ تفسير المنار
١٠ـ منهج الامام محمد عبده فى التفسير

تفســير القــرآن

١ ــ التفسير فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم:

نزل القــرآن الــكريم بلغة العــرب وعلى أســاليب بلاغتهم ، فكانوا يفهمونه ، ويدركون أغراضــه ومراميه ، وان تفاوتوا فى هذا الفهم والادراك ، تبعا لاختلاف درجاتهم العلمية ، ومواهبهــم العقلية ، ولعل ابن خلدون كان مبالغا حين ذهب الى أن الصحابة جميعا كانوا فى فهمه سواء (١)، فقد قال ابن قتيبة ، وهو ممن تقدم على ابن خلدون ببضعة

(١) المقدمة ص ٤٨٩ .

قرون : (ان العرب لا تستوى فى المعـــرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ، بل ان بعضها يفضل فى ذلك على بعض) (١) .

وقال مسروق : « جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذ (٢) . فالاخاذ يروى الرجل ، والاخاذ يروى الرجلين ، والاخاذ يروى العشرة ، والاخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الاخاذ » (٣) .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، اذا أشكل عليهم معنى من معانى القرآن ، لجئوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيوضحه لهم ، ويبينه ، كما قال تعالى : (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون) : (النحل : ٤٤) .

---

(١) ابن قتيبة المسائل والأجوبة ص ٨ .

(٢) الاخاذ جمع أخاذة وهى كالغدير يجتمع فيه الماء ، ، وجمع الأخاذ أخذ مثل كتاب وكتب ، (صحاح الجوهرى ٢/٥٦٠) .

(٣) طبقات ابن سعد ٢/١٠٥ .

فمن ذلك ما رواه احمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال : « لما نزلت هـذه الآية : (الذين آمنـوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله وأينـا لا يظلم نفســه ؟ قال : انه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ان الشرك لظلم عظيم ؟ انما هو الشرك » .

وما رواه الترمذى وابن حبـان ، أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

وما أخرجه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ـ وهو على المنبر ـ « وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة » ألا وان القوة الرمى .

وما أخرجـه الترمذى ... أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر . وأن كلمة التقوى (١) هى لا اله الا الله .

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس ، أن رسول الله

---

(١) فى قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) .

صلى الله عليه وسلم قال : « الكوثر نهــر أعطانيه ربى فى الجنة » (١) .

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وفى صحيح البخارى كتابان هما : كتاب تفسـير القرآن وكتاب فضائل القرآن ، يشغلان حيزا واضحا من الكتاب ربما كان نحو الثمن منه » (٢) .

وقد إختلف العلمــاء فى المقدار الذى بينــه النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه من القرآن .

فمنهم من ذهب الى أنه بين لأصحابه كل معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه (٣) .

ومنهم من ذهب الى أنه لم يبين لأصحابه من معانى

---

(١) الاتقان ٢/١٩١ ـ ٢٠٥ .

(٢) دائرة المعارف الاســلامية مادة تفسير : ٥/٣٤٩ (تعليق الأستاذ أمين الخولى) .

(٣) ابن تيمية مقدمة فى أصول التفسير ص ٥ .

القرآن الا القليل (١) وقد استدل كل فريق لرأيه بعدد من الأدلة (٢) .

والحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الكثير من معانى القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح ، ولم يبين كل معانى القرآن ، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء : ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه مالا يعذر أحد فى جهالته .

قال ابن عباس : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله » (٣) .

* * *

ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلى لأهله ، ووضوح حاجات حياتهم العملية ، وتطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن تطبيقا عمليا فى حياته ، حتى

---

(١) الاتقان ٢/١٧٩ .
(٢) الاتقان ٢/٢٠٥ وفى أدلة الفريق الآخر انظر القرطبى ١/٣١ والاتقان : ٢/١٧٤ .
(٣) تفسير ابن جرير الطبرى : ١/٢٥ .

قالت عائشة : كان خلقه القرآن ، كل هذا جعل حاجتهم الى التفسير غير كبيرة ، خصوصا أنهم كانوا يعيشون فى معانى القرآن ، ويتسابقون الى العمل بآياته قبل أن يحفظوا الجديد منها ، الى جوار بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لمجمل القرآن ، وتوضيحه لمشكله ، وتخصيصه لعامه ، وتقييده لمطلقه ، فمن ذلك بيانه لمواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وكيفيتها ، وبيانه لمقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها ، وبيانه لمناسك الحج .

فكان القدوة الحسنة فى السلوك القرآنى ، والتطبيق العملى لأوامر القرآن ، ولذا ورد فى الحديث : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

ومن توضيح المشكل : تفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) (١) بأنه بياض النهار وسواد الليل :

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

ومن تقييد المطلق ، تقييده اليد باليمين فى قوله تعالى : (فاقطعوا أيديهما) (المائدة : ٣٨) .

وكان صلى الله عليه وسلم يبين لهم معانى القرآن وأهدافه ، وروحه العامة ، فى سفره واقامته ، وحربه وسلمه ، وغزوه وجهاده ، حتى قال يحيى بن كثير : السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنة ، وعن الفضل بن زياد : سمعت أحمد بن حنبل ، وقد سئل عن قول يحيى هذا ، فقال : ما أجسر على هذا أن أقوله ، ولكنى أقول : ان السنة تفسر الكتاب وتبينه .

٢ ـ التفسير فى عهد الصحابة :

كان القرآن هو المرجع الأول للمسلمين فى ذلك العصر أيضا ، يقرءونه فى صلاتهم ، ويهدرون به فى غزوهم ويرتلونه فى قيام ليلهم .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، اذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى ، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجعوا فى ذلك الى اجتهادهم واعمال رأيهم ، وساعدهم على التفسير ، أنهم عرب خلص ، يعرفون معانى اللغة وأسراوها ، وأنهم عاشوا فترة نزول الوحى مع النبى ، فعرفوا أسباب النزول، وأدركوا ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على

فهم كثير من الآيات ، لهذا قال الواحدى : « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها » .

❊ ❊ ❊

غير أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا متفاوتين فى قدرتهم على تفسير القرآن ، تبعا لمقدار سماعهم التفسير من رسول الله ولمقدار ما شاهدوا من أسباب النزول ، ولمدى ما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد ، قال تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب) (البقرة : ٢٦٩) .

قال السيوطى فى الاتقان : « ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير » .

وهناك من تكلم من الصحابة فى التفسير كأبى هريرة (ت ٥٧ هـ) وجابر بن عبد الله (ت ٧٤ هـ) وعبد الله ابن عمر (ت ٧٣ هـ) وعبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣ هـ) وأنس بن مالك (ت ٩١ هـ) ، غير أن ما نقل

عنهم فى التفســير قليل جدا بالنسبة للعشرة الذين ذكرهم السيوطى .

وأكثر من روى عنهم من هؤلاء العشرة ، أربعة هم : عبد الله بن عبــاس ، ثم عبد الله بن مسعود ، ثم على بن أبى طالب ، ثم أبى بن كعب ، رضى الله عنهم جميعا .

٣ ـ التفسير فى عهد التابعين :

لم يدون التفسير فى عهد الصحابة ، لقرب العهد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقلة الاختلاف والتمكن من الرجوع الى الثقات .

فلما انقضى عصر الصحابة أو كاد ، وصار الأمر الى تابعيهم ، انتشر الاسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة فى الأقطار ، وحدثت الفتن واختلفت الآراء ، وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء ، فأخذوا فى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن » (١) .

(١) حاجى خليفة ١/٣٣ .

فأول ما دونوه من العلوم التفسير ، ومن أقدم التفاسير تفسير أبى العالية رفيع بن مهران الرياحى (ت ٩٠ هـ) ، ومجاهد بن جبر (ت ١٠١ هـ) ثم تفسير عطاء بن أبى رباح (ت ١١٤ هـ) ثم تفسير محمد بن كعب القرظى (ت ١١٧ هـ) : (١) .

* * *

وقد انقسمت جماعة المفسرين الى ثلاث مدارس :

الأولى : مفسرو مكة المكرمة ، وهم تلاميذ عبد الله ابن عباس .

والثانية : مفسرو الكوفة ، وهم تلاميذ عبد الله ابن مسعود .

والثالثة : مفسرو المدينة ، وهم أصحاب زيد بن أسلم العدوى .

واذا قارنا بين التفسير فى عهد الصحابة ، والتفسير فى عهد التابعين خرجنا بالنتائج الآتية :

---

(١) حاجى خليفة ٤٢٧/١ .

(أ) التفسير فى عهد الصحابة	(ب) التفسير فى عهد التابعين
ـ لم يفسر القرآن جميعه انما فسر ما غمض منه	ظهرت تفاسير شاملة لأكثر آيات القرآن .
٢ ـ قلة الاختلاف فى فهم معانى القرآن	زاد الخلاف نسبيا فى فهم معانى القرآن عما كان فى عصر الصحابة .
٣ ـ الاكتفاء بالمعانى الاجمالية للآيات .	ظهر تفسير لكل آية ولكل لفظة .
٤ ـ قلة الخلاف المذهبى حول الآيات .	زاد الخلاف المذهبى حول الآيات مثل تفسير قتادة والحسن البصرى حول القدر .
٥ ـ لم يدون التفسير	دون التفسير .
٦ ـ اتخذ التفسير شكل الحديث	استقل التفسير فى كتب مستقلة وان ظل فى شكل رواية الحديث

(ب) التفسير فى عهـد التابعين	(ا) التفسير فى عهـد الصحابة
كثر الرجـوع الى أهـل الكتاب ودخل فى التفسير كثير مـن الاسرائيليـات وذلك لكثرة من دخـل من أهـل الكتـاب فى الأسلام وتساهل التابعين فى الاستماع اليهم .	٧ ـ قلة الرجوع الى أهـل الكتاب

ابتداء التدوين فى عصر التابعين :

إبتدأ فى هذا العصر تدوين التفسير والتصنيف فيه .
وأول كتاب ظهر فى التفسير كان لسعيد بن جبير بن هشام الكوفى الأسدى بالولاء ، ولى بنى والبة بن الحارث بطن من بنى أسد بن خزيمة المتوفى سنة ٩٥ هـ ، قتله الحجاج ، وكان أعلم التابعين فى التفسير . نص على ذلك قتادة وحكاه السيوطى فى الاتقان ، كما نسب تدوين التفسير الى مجاهد : قال ابن أبى مليكة : « رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه فيقول : ابن عباس : اكتب . قال : حتى سأله عن التفسير كله » (١).

وتميزت فى عصر التابعين أيضا ثلاث مدارس فى التفسير :

١ ـ مدرسة مكة ، وأصحابها تلاميذ ابن عباس رضى الله عنهم ومنهم :

أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى المتوفى سنة ١٠١هـ،

---

(١) ابن جرير الطبرى : تفسير ١/٣٠ .

حكى عن نفسه أنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.
وقد اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري .

وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥ هـ

وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى بمكة سنة ١٠٦ هـ .

وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة ١١٤ هـ .

٢ ـ ومدرسة العراق ، وأصحابها تلاميذ ابن مسعود ومنهم :

مسروق بن الأجدع الكوفي المتوفى سنة ٦٣ هـ (١).
والأسود بن يزيد المتوفى سنة ٧٥ هـ .

وعلقمة بن قيس المتوفى سنة ١٠٢ هـ .
وعامر الشعبي المتوفى سنة ١٠٥ هـ .

وقتادة بن دعامة السدوسي البصري المتوفى سنة ١١٧ هـ .

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١ .

والحسن البصرى المتوفى سنة ١٢١ هـ .

٣ ـ ومدرسة المدينة ، ورجالها تلاميذ أبى بن كعب، وأصحاب زيد بن أسلم المتوفى سنة ١٣٦ هـ . ومنهم :

أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى المتوفى سنة ٩٠ هـ

ومحمد بن كعب القرظى المتوفى سنة ١١٨ هـ .

٤ ـ التفسير فى عهد تابعى التابعين :

فى هـذا العهد اتجهت الهمم الى جمع ما أثـر من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن صحابته وعن التابعين بدون تفرقة بين المدارس الثلاث التى امتازت فى عصر التابعين بروايات مخصوصة .

فدونوا علم التفسـير فى الكتب الصـغار والكبار ، وصارت كتبهم أجمع للعلم من الكتب السابقة .

واشتهر من بينهم :

مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ .

وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

وسفيان بن سعيد الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ .

ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ .

ويزيد بن هارون المتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

وروح بن عبادة القيسى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

وعبد الرزاق بن همام الصنعانى شيخ الامام البخارى فى الحديث ، المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وتفسيره مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وتوجد نسخة منه بمكتبة استانبول بتركيا .

واسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

وآدم بن أبى اياس العسقلانى المتوفى سنة ٢٢٠ هـ .

وقد ضاع أكثر هذه التفاسير فلم يبق منها ، فى علمى ، الا تفسير سفيان الثورى ، وقد طبع حديثا بالهند ، وتفسير عبد الرزاق بن همام الصنعانى ، وتفسير مقاتل ابن سليمان ، وقد جمعت نسخه من أنحاء العالم وقمت بتحقيقه تمهيدا لنشره ان شاء الله ، والحمد لله رب العالمين .

٥ ـ تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ

اذا كانت معظم التفاسير فى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم لم تصل الينا ، فان مضمون ما فيها قد نقله الينا محمد ابن جرير الطبرى صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن .

قال السيوطى : (وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ، فانه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والاعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين) .

وقال النووى : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف فى التفسير مثل تفسير الطبرى .

ويقع تفسير ابن جرير في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير ، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يعتبر مفقوداً لا وجود له ، ثم قدر الله له الظهور والتداول ، فكان مفاجأة سارة للأوساط الاسلامية ، والعلمية أن وجدت في حيازة أمير حائل : الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد ، نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب . طبع عليها التفسير في مطبعة بولاق بالقاهرة فأصبحت في يدنا دائرة معارف غنية في التفسير المأثور (١) .

قال ابن تيمية : « وأما التفاسير التي بأيدي الناس ، فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري ، فانه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن بكير (٢) ، والكلبي (٣) » .

---

(١) المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ ، وقد طبع تفسير الطبري عدة طبعات بعد ذلك ، ومن أحدث الطبعات طبعة دار المعارف بتحقيق وتخريج الأسانيد للعلامة أحمد شاكر وأخيه العلامة محمود شاكر ، وقد توقفت هذه الطبعة بعد الجزء السادس عشر .

(٢) هكذا بالأصل وصوابها بشير .

(٣) فتاوى ابن تيمية ٢/١٩٢ .

وقد ظهر بعد ابن جرير عدة تفاسير بالمأثور منها تفسير أبى بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨ هـ . وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ ، وأبو الشيخ ابن حيان المتوفى سنة ٣٦٩ هـ ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، وابن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، وغيرهم .

٦ ـ التفسير النقلى والتفسير العقلى

كان جمهور الصحابة والتابعين وتابعيهم يتحرون التفسير بالمأثور .

بل كان منهم من يفضل المشى فى النار على القول فى القرآن بالرأى .

وكان ابن جرير يورد المأثور من الأقوال فى الآية ويرجح بعضها على بعض ، وغالبا ما يعتمد فى الترجيح على قوة السند .

وقد أنكر بشدة على من فسر القرآن برأيه بدون

اعتماد على شيء الا على مجرد اللغة (١) .

ولكنا مع ذلك نعتبر ابن جرير ممن جمع بين النقل والعقل وان كان تفسيره من أهم مراجع التفسير النقلي ، الا أنه مع ذلك يعتبر مرجعاً عظيم الأهميـة من مراجـع التفسير العقلي ، نظراً لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال ، واختيار أولاها بالصواب اختيارا يعتمد على صحة السند ، كما يعتمد على النظر العقلي والبحث الحر الدقيق ، فهو قد احتـكم الى المعروف من كلام العرب ، ورجع الى الشـعر القديم بشـكل واسـع ، متبعاً في هذا ما أثاره ابن عباس سابقاً (٢) ، كمـا اهتم بالمذاهب النحوية (٣) والأحـكام الفقهية (٤) وبعض مسائل علم الكلام (٥) .

فيمكن أن نعتبر تفسير ابن جرير من التفاسير التي جمعت بين النقل والعقل .

---

(١) انظر تفسيره للآية ٤٩ من سورة يوسف جـ١٢ ص ١٣٨ .
(٢) انظر تفسيره للآية ٢٢ من سورة البقرة ١/١٢٥ .
(٣) انظر تفسيره للآية ١٨ من سورة ابراهيم ١٣/١٣١ .
(٤) انظر تفسيره للآية ٨ من سورة النحل ١٤/٥٧ - ٥٨ .
(٥) انظر تفسيره للآية ٧ آخر سورة الفاتحة ١/٦٤ .

ونلاحظ أن المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن كان محدودا ، ثم نشر التفسير النقلى عن الصحابة والتابعين ، ثم نشأت طبقة جمعت المأثور من التفسير عن النبى (ص) وأصحابه وتابعيهم ، منهم من أضاف الى التفسير رأيه واجتهاده ، ومنهم من جمع التفسير النقلى ثم فسر الآيات التى لم يرد فيها تفسير بالمأثور تفسيراً اجتهادياً عقلياً ، معتمداً على ما عرف من لغة العرب وأساليبها ، وما ورد من التاريخ فى الأحداث التى حدثت فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم .

« وقد وقف الناس فى ذلك موقفين وانقسموا فريقين . فقوم تشددوا فى التفسير فلم يروا أن يجرءوا على تفسير شىء من القرآن ما لم يرد فيه قول للنبى صلى الله عليه وسلم أو للصحابة ، كالذى روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « لقد أدركت فقهاء المدينة وأنهم ليعظمون القول فى التفسير ، منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع » (١) .

---

(١) أحمد أمين ضحى الاسلام : ٢/١٤٤ ط ٦ .

وقال الشعبي : ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح ، والرأى (١) .

ومن أمثلة ذلك الأصمعى ، فهو مع علمه الواسع باللغة ، كان شديد الاحتراز فى تفسير الكتاب والسنة ، فاذا سئل عن شىء منها قال : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة أى شىء هو (٢) .

وأمثال هؤلاء حملوا على المفسرين بالرأى ، ورووا حديث (من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) .

وفريق آخر لم يجدوا بأسا ولا حرجاً من تفسير القرآن باجتهادهم معتمدين على درايتهم باللغة وأساليبها ، وما يتصل بذلك من العلم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ .

قال الماوردى : « قد حمل بعض المتورعين هذا الحديث على ظاهره ، وامتنع من أن يستنبط معانى القرآن باجتهاده ،

---

(١) تفسير الطبرى ١/٢٩ .
(٢) ابن خلكان ١/٤٠٩ .

ولو صحبها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح ، وهذا عدول عما تعبدنا بمعرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام ، كما قال تعالى : (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ولو صح ما ذهب اليه لم يعلم شيء من الاستنباط ، ولما فهم الأكثر من كتاب الله ، وان صح الحديث فتأويله : « من تكلم في القرآن بمجرد رأيه فقد أخطأ » .

وقد كان أكثر من قام بالتفسير العقلي علماء العراق أصحاب مدرسة الرأي في التشريع ، وتلاميذ ابن مسعود أستاذ أصحاب الرأي .

وقد فرق قوم بين التفسير والتأويل ، بناء على الاعتماد على النقل والعقل .

فعنوا بالتفسير ما اعتمد فيه على النقل ، مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصدر الأول ، وبخاصة في الأمور التوقيفية التي ليس للعقل فيها كبير مجال ، كتفسير الحروف المقطعة : آلم ، حم ، يس ، وكأسباب النزول والناسخ والمنسوخ . وعنوا بالتأويل ما يعتمد فيه

على الاجتهاد ، ويتوصل اليه بمعرفة مفردات الألفاظ ، ومدلولاتها فى لغة العرب واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعانى من كل ذلك •

وقد انقسمت كتب التفاسير الى هذين النوعين : كتب التفسير بالمأثور ، وكتب التفسير بالمعقول •

وفى ختام هذا المبحث نذكر خلاصة موجزة عن تاريخ التفسير : ـ

١ ـ بدأ التفسير بتوضيح النبى صلى الله عليه وسلم لبعض الآيات ، وبذلك يعتبر النبى الأمين أول مفسر للقرآن •

٢ ـ اتسع نطاق التفسير كلما بعد العهد بالنبوة لحاجة الناس الى التفسير وبعدهم عن ملابسات نزول القرآن •

٣ ـ لم يكن التفسير لذات التفسير بل نشأ التفسير اجابة عما غمض وتوضيحاً لما أشكل وتفسيرا لما أبهم •

فلم يفسر النبى الأمين جميع القرآن بل فسر آيات منه ، وتعهد أصحابه القرآن قراءة وفهما وتوضيحا ، فاتسع نطاق التفسير نسبيا ، ولكنه لم يشمل لجميع القرآن، ويؤيد هذا قول الامام الشافعى • (لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير الا شبيه بمائة حديث) (١) •

٤ ـ أقدم تفسير مطبوع الآن هو تفسير الثورى (ت ١٦١ هـ) ، وهو تفسير بالمأثور ، وقاصر على تفسير بعض الآيات ، وقد طبع حديثا بالهند •

٥ ـ أقدم تفسير كامل للقرآن وصل الينا هو تفسير مقاتل بن سليمان البلخى (ت ١٥٠ هـ) وقد تناول تفسير القرآن آية آية ، حتى فسر جميع القرآن •

٦ ـ كثير من التفاسير المبكرة ضاعت ولم تصل الينا ، ويعتبر تفسير ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) أقدم وثيقة تجمع هذه التفاسير •

---

(١) الاتقان ١٨٩/٢ •

٧ ـ استمرت عنـاية المسـلمين بالقرآن فى جميع العصور الاسلامية ، فألف حوله من الكتب مالا يحصى •

وصـــدق الله العظيم اذ يقول : (انا نحن نزلنـا الذكر وانا له لحافظون) •

٧ ـ التفسير بين القديم والحديث

القرآن كتاب الله الخالد ، والمعجزة الأبدية ، أنزله الله هدى ونورا وشفاء لما في الصدور . وتكفل النبي صلى الله عليه وسلم بشرحه وتبيينه للناس ، كما قال سبحانه : (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون) النحل / ٤٤ .

ولحق الرسول الأمين بالرفيق الأعلى وظل القرآن الكريم في مكان الصدارة يقرؤه المسلمون في غدوهم ورواحهم ويهتمون بدراسته وتفسيره على مر العصور .

مدارس التفسير :

نشأت مدارس للتفسير بمكة ، والمدينة ، والعراق .
وتميز الحجاز بلزوم التفسير بالمأثور ، كما تميز العراق بالتفسير المعقول ، ونشأ اتجاهان فى تفسير القرآن الى يومنا هذا ، هما التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى .

ونشأت مساجلات حول تفضيل أحدهما على الآخر . لكنا فى النهاية نرى أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر فمفسر القرآن ملزم بمعرفة تاريخ التشريع وأسباب النزول ومعرفة المكى والمدنى والناسخ والمنسوخ وما أثر عن النبى (ص) وصحابته ، والتابعين فى تفسير الآية ثم هو ملزم باستخدام العقل والرأى اذا لم يجد أثرا فى الآية ، أو وجد أثرا معلولا أو مضطربا ، فعليه أن يجتهد رأيه اذا كان من أهل الاجتهاد والاستنباط كما قال سبحانه : (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) .

قال القرطبى : « النهي عن التفسير بالرأى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما : أن يكون له فى الشىء رأى ، واليه ميل

من طبعه وهواه لينجح على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى .

أما الوجه الثانى : فانه يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهاره بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة وما فيه من الاختصار والحذف ، والتقديم والتأخير فمن لم يحكم بظاهر التفسير ، وبادر الى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى ، والنقل والسماع لابد منهما لمن أراد التفسير أولا ، ليتقى بهما مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك ليتسع الفهم والاستنباط) (١) .

فالتفسير بالرأى المذموم هو الذى يعتمد فى تفسير الآية على مجرد الهوى ولا يعتمد فى رأيه على نص أو اجماع أو شهادة من اللغة أو يتلاءم مع روح الشريعة.

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ١/٣٤ .

اما اذا كان الغرض هو الكشف عن المعـانى الدقيقة التى يحتملها اللفظ فى الآيات الكريمة بحيث لا ينـكره الدين ، وكان المفسر أهلا لذلك بأن كان حائزا لمبـادىء العلوم اللازمة له ، كالنحو والصرف وعلم البلاغة ، متمكنا من أصول الدين ومن الفقه وأصوله فجائز (١) .

العنـــاية بالقـــرآن

لقد عنى المسـلمون الأولون بالقـرآن قراءة وفهما ودراســة وحفظا وعلما وعملا ، فكان القرآن كتـاب حياة ووجود ، اتبعوا أحكامه ونفذوا أوامره ، وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، فكانوا سادة الدنيـا وأسـاتذة العالمين ، ثم تحول القرآن الى كتاب دراسة ، بعد أن كان دستور الحياة ، فنشأت حول القرآن دراسات متعددة كان المقصود منها خدمة القرآن الكريم ، فالنحو الذى يقوم اللسـان ويعصـمه من الخطأ ، أريد به خـدمة النطق الصـحيح للقرآن ، وعلوم البلاغة التى تبرز خصائص اللغة العربية وجمالها ، أريد بها بيـان نواحى الاعجاز فى القـرآن ،

---

(١) مجمع البحوث ، المؤتمر السادس ، التفسير بالرأى .

والكشف عن أسراره الأدبية ، وتتبع مفردات اللغة والتماس شواردها وشواهدها وضبط ألفاظها ، وتحديد معانيها ، وصيانة ألفاظ القرآن ومعانيه ، أن تعدو عليها عوامل التحريف أو الغموض ، والتجويد والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته والتفسير لبيان معانيه والكشف عن مراميه .

والفقه لاستنباط أحكامه والأصول لبيان قواعد تشريعه العام وطريقة الاستنباط منه ، وعلم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد ، وأسلوبه في الاستدلال عليها .

وقل مثل هذا في التاريخ الذي يشتغل به المسلمون تحقيقا لما أوحى به الكتاب الكريم في مثل قوله تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص) .

وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من العلوم .

اختلاف التفاسير باختلاف ثقافة المفسر

وتبعا لهذه الأنحاء المختلفة فى نظر المسلمين الى القرآن واشتغالهم به ، نرى التفاسير ذات ألوان متعددة ، فمنها ما يغلب عليه تطبيق قواعد النحو وبيان اعراب الكلمات وبنائها ، ومنها ما يغلب عليه بيان نواحى البلاغة والاعجاز ، ومنها ما يهتم بالفقه والتشريع وبيان أصول الأحكام وهكذا .

مقارنة :

واذا قارنا بين تاريخ التفسير والأدوار التى مر بها وتاريخ التشريع الاسلامى والأدوار التى مر بها ، وجدنا تلازما وتوافقا بينهما فى القوة والضعف ، فكلاهما مر بأطوار النشأة والنمو ، ثم النضج والكمال ، ثم التقليد والجمود ، وأخيرا جاء عصر النهضة الحاضر .

فدور النشأة والنمو من البعثة المحمدية الى سنة ١٠٠ هـ ، ودور النضج والكمال من سنة ١٠٠ هـ الى سنة ٣٥٠ هـ ، ودور التقليد والجمود من سنة ٣٥٠ هـ الى

سنة ١٢٨٦ هـ ، ودور النهضة من سنة ١٢٨٦ هـ الى الوقت الحاضر .

التفسير في دور التخلف :

نشأ تفسير القرآن شرحا للفظ غامض أو توضيحا لمعنى بعيد ، ثم تطور الى تفسير بالمأثور وتفسير بالرأى . وفى عهد التقليد والجمود تأثر التفسير بثقافة المفسر وليس ذلك عيبا بذاته ، ولكن العيب أن يتحول التفسير الى كتاب فى القواعد والاعراب ، أو البلاغة والبيان ، أو آراء الفرق والرد عليها ، فينصرف الناس عن القرآن وهدايته وروحه السامية ، الى ما كتبه المفسرون من علوم واصطلاحات وفنون ومعارف فيها كل شىء الا التفسير .

قال السيد رشيد رضا فى مقدمة تفسير المنار :

« كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية ، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب ، وقواعد النحو ، ونكت المعانى ، ومصطلحات البيان .

ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباط الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به خرافات الاسرائيليات ، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض ـ من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن ، فكانت الحاجة شديدة الى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه الى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه ، وما أنزل لأجله من الانذار والتبشير والهداية والاصلاح وهو ما ترى ، تفصيل الكلام عليه في المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه •

ثم الى العناية الى مقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ومراعاة أفهام صنوف القارئين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفسلفة والعلوم الطبيعية وغيرها •

التفسير فى عصر النهضة

١ ـ كان السيد جمال الدين الأفغانى أساس النهضة الاسلامية الحديثة ، ورجل الاصلاح الذى نفخ فى هذا الشرق من روحه الفياضة فدبت فيه الكرامة والعزة وعادت اليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق •

٢ ـ حمل راية الاصلاح تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، وكان اصلاحه دينيا اجتماعيا واهتم لذلك بتفسير القرآن الكريم وجعله أساسا لتربيته ، ونهضته الاجتماعية ، وأفكاره التربوية للنهوض بالأمة المصرية والاسلامية •

٣ ـ انتقل الامام الى رحمة الله ، واستمر السيد رشيد رضا فى تفسير المنار الى سورة يوسف : ويعتبر هذا التفسير مرجعا ممتازا لكل مفسر فى العصر الحديث •

وقد فتح الامام محمد عبده عين الطريق لمن جاء بعده من المفسرين الذين استفادوا من تفسيره وتابعوا مسيرته ، وعاد للتفسير نضارته ويسره ، وقوته وروحه ولعل هذا من أسرار حفظ الله لكتـابه كما قال الحق سبحانه : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

٨ ـ الامام محمد عبده وآثره فى التفسير

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله ، ولد سنة ١٨٤٩ م وتوفى سنة ١٩٠٥ م وقد نشأ فى قرية محلة نصر مركز شبراخيت مديرية البحيرة وهى قرية تبعد عن دمنهور بنحو خمسة عشر كيلو متراً ، وتقع على ترعة تسمى الأنصارية .

وكانت أسرته متوسطة الحال ويقول عن نفسه : « انه تعلم القراءة والكتابة فى منزل والده ، ثم انتقل الى دار حافظ للقرآن فقرأ عليه القرآن ، وأتم حفظه فى سنتين » ثم ذهب الى المسجد الأحمدى بطنطا ليتعلم تجويد القرآن وقواعد اللغة العربية .

ونجح الامام فى تعلم التجويد وأتم فنونه فى سنتين على الوجه الأكمل وفى سنة (١٢٨١ هـ : ١٨٦٤ م) جلس فى دروس العلم فى المسجد الأحمدى لكن منهج التعليم كان وعراً شاقا يتبع الطريقة التقليدية التى تعتمد على الحفظ وحشو الذهن بالمعلومات وعلى أن المعرفة مقصودة لذاتها قال الامام فى الترجمة التى كتبها لنفسه :

« وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فأدركنى اليأس من النجاح وهربت من الدرس ، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى وأخذنى الى المسجد الأحمدى وأراد اكراهى على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد أيقنت أن لا نجاح لى من طلب العلم ولم يبق على الا أن أعود الى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثرة من أقاربى ، وانتهى الجدل بتغلبى عليه ، وأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ألا أعود الى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة (١٢٨٢ هـ : ١٨٦٥ م على هذه النية) (١) .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ٢٠/١ .

عاد الامام الى طلب العلم مكرها مجبرا فقد أجبره أبوه وأخوه على العودة الى الجامع الاحمدى ، ولما كان الامام يائساً من متابعة الدراسة بهذا المعهد بعد أن قضى به سنة ونصفاً لا يفهم شيئاً ، فقد هرب فى قرية (كنيسة أورين) وهى قرية من قرى شبراخيت غالب سكانها من خئولة أبيه ، وهناك اتصل بمعلمه الأول ومفتاح سعادته الشيخ درويش خضر أحد أخوال أبيه ، وهو رجل سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ، ووصل الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدنى ، وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه : ثم رجع من أسفاره الى قريته واشتغل بالزراعة .

كان الشيخ درويش خضر موجهاً ومربياً ومعلماً وفيه قوة نفسية تؤثر وتجذب ، وقد استشف ما فى نفسية الفتى الهارب واستطاع أن يكبح جماحه ، وأن يحول بغضه للمعرفة والعلم الى حب شديد وأخذ يبث فيه النزوع الى المثل الانسانية ، والدينية العليا والتلميذ يتلقى ما يلقى

عليه ، تلقى الصادى للماء العذب الفرات ، وتجاوبت النفسان والتقى القلبان ، وقد حكى الامام لنا هذه الطريقة التربوية فقال :

« جاءنى هذا الشيخ وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره ، فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد ، لكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر ، فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه وتسبق الى نفسى ، وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح ، والسباحة فى نهر قريب من القرية فرميت الكتاب ، وانصرفت اليهم ، وبعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه وألح على فى قراءة شىء منه فقرأت وفسر ، ثم تركته الى اللعب وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى اليوم الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت

أقرأ له فيه وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة، ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقرؤه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب وهو ينازعنى الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم .

« كانت هذه الرسائل تحتوى على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم ، فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل ، وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا ..

« لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء الى ماكنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الى ماكنت أبغضه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور

أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ، ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا أحتمل أن أرى واحداً منهم بل أفر من لقائهم جميعاً كما يفر السليم من الأجرب .

« وفى اليوم السابع سألت الشيخ ـ ما هى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الاسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء مسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب .

هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم ـ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون وان كنا فى غمرة ساهين ، سألته ماوردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سوى القرآن ، نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر : قلت له : أنى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً ؟ قال : أقرأ معك

ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك بالتفضيل، واذا خلوت فاذكر الله ، ـ على طريقة بينها ـ وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر ، غير الذى كنت أعهده ، واتسع لى ما كان ضيقاً ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيراً وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيراً ، وتفرقت عنى جميع الهموم ، ولم يبق لى الا هم واحد ، وهو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس ، ولم أجد اماماً .. يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى ، الا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد ـ هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى ، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة ، وهو مفتاح سعادتى ان كانت لى سعادة فى هذه الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان

من غاب عن غريزتى ، وكشف لى ما كان خفيا عنى مما أودع فى فطرتى » (١) .

ونلمح أثر الصدق فى حديث الامام عن نفسه ، ونحس مدى الحسرة التى كان يلقاها طالب العلم الدينى آنذاك حين يذهب الى منابع العلم ، فلا يجد الا منابع آسنة قد تغير طعمها من طول الركود .

وقد عمل الامام جاهداً فى كبره على تطوير مناهج التعليم فى الأزهر ، بحيث يخرج الأزهر رجالا عاملين وعلماء مستنيرين وبذل جهداً كبيراً فى سبيل تأسيس جامعة مدنية بجوار الجامعة الأزهرية .

عودته الى طنطا

رجع الشيخ محمد عبده الى المسجد الأحمدى وأقبل على الدروس فى شغف وتلهف للمعرفة ، ففهم الدروس ثم تميز على زملائه فالتفوا حوله ليطالع لهم ..

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٢٣ .

واستقرت فى ذهن الامام هذه النوازع الصوفية التى غرسها فيه الشيخ درويش خضر ، وساعد على استقرارها مظاهر الدراويش والأولياء فى مسجد سيدى أحمد البدوى، ولكنه كان تصوفاً سلبيا يميل الى المعرفة وهضم النفس والاعتماد على الاشارات ، والفيوضات والالهامات • وقد اعتمد الامام على اشارة أحد الدراويش له بالسفر الى القاهرة •

قال الامام : « وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة ، سنة ١٢٨٢ هـ » كنت أطالع بين الطلبة ، وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى فرأيت أمامى شخصاً ، يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسى قال ما معناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ، فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبحان الله من جد وجد • ثم انصرف ، فعددت ذلك القول الهاماً ساقه الله لى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا) •

٦ ــ دراسته فى الجامع الأزهر

ذهب الشيخ محمد عبده الى الجامع الأزهر فى شوال سنة ١٢٨٢ هـ ــ فبراير سنة ١٨٦٦ م •

ولم تكن طريقة التعليم فيه تختلف كثيراً عن طريقة التعليم فى الجامع الاحمدى ، تلك الطريقة الجامدة العقيمة التى كانت تفرض على طلاب العلم مختصرات ، لا تفهم الا بشروح وحواشى وتقارير وانما تزحم ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة ، والتدقيقات اللفظية التى تزهق الفكر ، وتعوقه عن النمو ولا تنمى فى التلميذ الملاحظة والاستنتاج ، وقد وصف هذه الطريقة بعض علماء الفرنجة فقال : « ولئن كانت أنماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافاً أساسيا ، فهى لاتختلف فى شىء عن الأنماط التى كانت عندنا قديماً » .

أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشى عندنا منذ قرون ، لا يزال فى عنفوان سطوته فى الجامعات الاسلامية ـ « ليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر ، هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص ، ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون » .

« والمفروض أن الأجيال متراجعة الى الانحطاط ، والاجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبى صلى الله عليه وسلم من طريق هابط من أعلى الى أسفل ، والأئمة المجتهدون بعداء فى عصور ذاهبة فى اعماق الماضى ، لايستطيع الحاضر أن يدرك غبارها (١) » .

ضاق الامام بطريقة التدريس فى الأزهر ، ولكن الأقدار التى هيأت له الشيخ درويش خضر عند أزمته من الجامع الأحمدى قد هيأت له فى الأزهر أساتذة ممتازين ، استطاعوا أن يجذبوا انتباهه وأن يحببوا اليه أنواعاً من العلوم ، والمعارف التى لم تكن تدرس فى الأزهر ، منهم الشيخ حسن الطويل ، وهو رجل عشق الحكمة وقت أن كرهها الناس ، وعشق الفلسفة يوم أن كانت تعد لونا من ألوان الالحاد .

كان الشيخ الطويل يدرس كتب ابن سينا ومنطق أرسطو ، وهى كتب لم تكن مألوفة فى الأزهر ، فتعرف

---

(١) ترجمة الأستاذ الامام ، لفضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرازق . كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس سنة ١٩٥٩ .

عليها الشيخ محمد عبده عن طريق استاذه هذا ، وضم بذلك في تحصيل معرفته الى كتب الأزهر التقليدية هذه الكتب الفلسفية ، وكما هيأ له القدر أن يتتلمذ على الشيخ حسن الطويل وهو رجل يعالج الحكمه ، هيا له أن يتتلمذ على الشيخ البسيونى الاديب ، وهو شيخ يعنى بمعالجة الأسلوب الأدبى ، وبالفصاحة والبيان العربى • لا كما عنى صاحب شروح التلخيص بذلك ، وانما على نحو آخر هو أن الأدب والبيان دربة وملكة ، وذوق واحساس ، أكثر منها قواعد ومناهج •

فلم ينشأ الشيخ محمد عبده باتجاه واحد وانما تأثر بتصوف الشيخ درويش ، وفلسفة الشيخ الطويل ، وأدب الشيخ البسيونى ، وتزمت الشيخ عليش وزملائه من أساتذة الأزهر ، وكل هذه العوامل والمؤثرات تفاعلت في ذهنه وساعدت على تكوين شخصيته ، وتنمية مواهبه واستعداده الفطرى •

الى جوار نفس أبية وهمة عالية ورغبة في الاصلاح

وأفق واسع يفهم الاسلام ، ويدرس القرآن فيرى فيه موسوعة الهية تكفلت بالصلاح والاصلاح ، وكانت نورا وهدى للسابقين وهى الملاذ والنجاة للحاضرين ، ولذلك اهتم الامام بتفسير القرآن ، وكان تفسيره فتحا الهيا ونهضة دينية ، وثورة تشريعية استفاد بها المسلمون وكان لها أكبر الأثر فى التطور ، والاصلاح فى العصر الحديث .

٩ ــ الامام محمد عبده وتفسير المنار

من معالم التفسير البارزة فى العصر الحديث ، تفسير الامام محمد عبده للقرآن الكريم ، ذلك أن الامام كان شعلة أضاءت الطريق لمن جاء بعده ، وكان علماً من أعلام التوجيه والحرية والاصلاح الدينى والاجتماعى .

وقد أيقن الأستاذ الامام « أن التربية الحقيقية واصلاح شأن الأمة وتقويم أخلاقها وتعليم بنيها ومحاربة الفساد فيها كل ذلك كفيل بأن يهيىء البلاد لحالة أسلم وأحسن » .

وقد تأثر الشيخ محمد عبده فى منهجه الاصلاحى والدينى بعدد من الأساتذة والمصلحين ، وكان من أبرز من

تأثر بهم السيد جمال الدين الأفغاني الذى قدم الى مصر سنة ١٨٨٧ م ، ثم التقى به الشيخ محمد عبده ، ولازم مجالسه ، واتخذ جمال الدين أخا وصديقا وترجمانا لأفكاره .

كان جمال الدين يعلم الحكمة ويوعز بالتفكير الحر واستقلال الفكر مع غيرة على الاسلام وأهله ، ورغبة فى جمع أشتات المسلمين .

وكان من أثر جمال الدين اتجاه المجاور الشيخ محمد عبده الى الاصلاح ؛ اذ شرع يكتب فى جريدة (الأهرام) فصولا متتابعة سامية المنزع مشتملة على أصول الدعوة الاصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها ، وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس الى ذلك الفتى الناهض الى السابعة والعشرين من عمره ، نهضة المصلحين الكبار عاقلا جريئا .

وصل صدى تلك المقالات الى أسماع الجامدين من الشيوخ والتقى فيها بحديث ملازمة كاتبها للسيد جمال

الدين الأفغانى ، واشتغاله بالفلسفة وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة ، ونهيه عن التقليد ، ودعوته الى الاشتغال بالعلوم الحديثة ، وتحبيذه لعلوم الفرنجة واطالة شعره أيضاً .

دخل الشيخ محمد عبده مجلس الامتحان سنة (١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م) وكل ذلك ينتظره فى صدور أعضائه ، ما عدا الرجل المنصف الشيخ محمد المهدى العباسى ، شيخ الأزهر لذلك العهد ورئيس لجنة الامتحان .

ولولا قوة الشيخ محمد عبده فى علمه ، وفى نفسه قوة باهرة وترفع الشيخ المهدى عن الظلم ، لقضى مجلس الامتحان بأن ذلك المجاور المضطهد لا يستحق نجاحا .

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الدرجة الثانية . وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فشعر لأول مرة بأنه انتصر على خصومه الجامدين ، أعداء الاصلاح برغم جاههم وكثرتهم ، وزاده ذلك نشاطا ، فأخذ يكتب فى الصحف ، وقد بدأت العقول تتفتح ، كما تتفتح أكمام الورد ، وتولى رياسة تحرير الوقائع ، فاتخذ منها منبرا

للتوجيه والدعوة الى الهدى والى صراط مستقيم ، وانضم اليه من تلاميذه وصحبه من عاونوه فى رسالته وقد قبسوا من علم جمال الدين ما قبس ، وكان لبعضهم في الوطنية والعلم مقام مشهود .

كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت فخب فيها الامام محمد عبده ووضع ، ولما احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها ، كان الشيخ ممن أصابتهم عقوبتها ، فسجن ونفى، ولكنه همة لا تفل ، وعزيمة لا تكل ، فالتقى بشيخه وصديقه جمال الدين ، وأخذا يعملان على جمع شمل المسلمين ، وبعد جهود مضنية من الرجلين رأى التلميذ أن أسلم طريق لايقاظ الأفهام هو تعليم المسلمين ، ورأى الشيخ الأستاذ مع ذلك ضرورة ايقاظ الهمم ، فافترقا كل يعمل على منهاجه .

أخذ يلقى محمد عبده دروسه فى الشام ، ثم لما عاد من منفاه أخذ يلقى دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهريين ، وقد عين فى منصب من أعلى مناصب القضاء ، عسى أن يصرف عن رسالته التى حملها وصار وحده الحامل لها ،

خصوصا بعد وفاة صديقه جمال الدين ، ولكنه لم يصرف عنها ، لانها منبعثة من قلبه وايمانه ، لا من تكليف حاكم ، أو من تعيين في منصب ، ورسالته هي التعليم ، فانشأ الجمعية الخيرية الاسلامية للتعليم وعقد الندوات العلمية ، وألقى الدروس والمحاضرات ، وكان الدرس الذي يمكنه من أداء رسالته العلمية هو تفسير القرآن ، فهو معجزة الاسلام ، وفيه شريعته ، وهو حبل الله الذي يعتصم به المسلمون ، وهو برهان الله ونوره المبين (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) (المائدة : ١٦) .

لقد وجهه شيخه الصوفي الى القرآن وتدبره ، وأسلم منهج لتفسيره ، وهو فهم المعنى الاجمالى ثم التوجه بعد ذلك بصفاء نفسي الى معانيه السامية ، فانه لابد من أن تسمو نفس طالب علم القرآن ، حتى يعلو الى ادراك سموه ، وانك لترى الامام محمد عبده يتجه في تفسيره اتجاها لم يسلكه أحد من المفسرين ، فان المفسرين من قبله كانوا اما أن يعتمدوا على الأثر ، واما أن يعتمدوا على ما تؤديه

الألفاظ من معان ، وما يشتمل عليه القرآن فى الفاظه وجمله وأساليبه من بلاغه ، وقليل منهم من كان يغوص فى تدبر هذه المعانى ـ كما قال الغزالى ـ فوراءها آفاق للتدبر والتأمل ، وقد حاول الامام بالتزامه منهاج التدبر فى المعانى أن يوجه أذهان تلاميذه الى أسرار المعانى القرآنية ، وانك تقرأ ما نقل من تفسيره ـ وأحسب أن النقل كان مقربا لما قاله الامام وليس محققا لكل ما قال ، ولا مصورا لكل ما أراد ، ـ فتجد المحاولة الجدية لمعرفة ما فى آيات القرآن من مرام وغايات وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة) (البقرة : ٢١٣) فتجد فيها المحاولة بينة رائعة عظيمة .

والامام فى تفسيره كان حريصا على تنقية الاسلام وتفسير القرآن من الشوائب ، وان طائفة كبيرة من الاسرائيليات دخلت فى تفسير القرآن ، فكانت حجابا حاجزا عند بعض المفسرين دون التغلغل فى ادراك معانيه ، فكان من عمل الامام فى دروسه أن أزال هذه الغواشى ، فيما نشر ، لتبدو صفحة القرآن متألقة ونورها بيناً .

وان تلك الغواشي كانت كثيفة الى درجة ان وقع بعض كبار المفسرين في أغلاط بسببها ، واذا كان العابثون بالديانات السماوية قد حرفوا الكلم عن مواضعه في بعضها ، فانهم قد عجزوا عن ذلك في القرآن ، لأن الله حفظه ، ولأنه بأسلوبه فوق تحريف المحرفين ، وأى كلام يلحق به يبدو بادي الرأى مميزاً ، ولم يحاول أحد ذلك لعجزه ابتداء ، وقد حفظ متواترا في الصدور لا في السطور فلا سبيل لمحرف أن يصل اليه ، ولكن أولئك جاءوه من تلك الاسرائيليات ليشوهوا جماله ، ومع ذلك جعل الله في كل عصر من أئمة الحق من يرد زيفهم ، وكان من أبرزهم في العصر الحديث الأستاذ الامام .

ولقد كان الامام يقرأ ما يقرأ حتى انه كان يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيراً ما بين مطبوع ومخطوط ، ولكنه يستعين بمجموعها ، الى لباب المعنى ، لا لينقل ما فيها ، أو يتيه فيما يقرأ .

وكان يتخذ من منبر القرآن طريقاً لبيان البدع

والأوهام ، وما فرق أمر المسلمين بعد الاجماع ، ويوضح الفرقة الفكرية والسبيل الى تلافيها ، بالاجتماع على مائدة القرآن والأخذ من ورده الصفى ، وعلمه النقى ، ولقد تكونت مدرسة من العلماء والمثقفين تطلب علم الامام وترويه وتنشره ، ومن أقوى هذه المدرسة تأثراً بالامام السيد رشيد رضا ، فقد حاول فى تفسير المنار حكاية طريقة الشيخ ، ولكن طريقة الامام كانت طاقة نفسية ، وليست منهاجا فقط ، ولذلك لا نجد فى الأجزاء التى أتمها السيد رشيد رضا التغلغل الذى كنا نراه فى المنقول عن الامام . ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا فى تفسير الامام محمد عبده :

أولهما : العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وذلك بلا ريب خير كله .

وثانيهما : النقل الكثير عن المفسرين ، وان السبب فى ذلك أن الامام كان يلقى درساً ، فكان يلقى ما تمثل فى عقله وقلبه مما قرأ وتأمل وتدبر فى القرآن ، ولأن كل همة نفسه كانت متجهة الى لباب القرآن .

قال السيد رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار : « هذا وانني لما استقللت بالعمل بعد وفاته ، خالفت منهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة ، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها ، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية ، والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفي الاكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة وفي بعض الاستطرادات ، لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر ، أو يقوى حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة ، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب ، وتسكن اليه النفس ، واستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها ، في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه ، وفي النهوض باصلاح أمته وتجديد شباب ملته » (١) .

والمتأمل في نهضة التفسير في العصر الحديث يرى أن

---

(١) تفسير المنار ١٦/١ .

منهج الامام محمد عبده فى تفسير القران الكريم كان قبسا أضاء الطريق لمن جاء بعده من المفسرين ، وان أول من استضاء بهدى الامام فى التفسير ، هو تلميذه السيد رشيد رضا الذى أتم تفسير المنار من أول سورة البقرة الى منتصف سورة يوسف ، حيث ينتهى الى الجزء الثانى عشر من القرآن الكريم ، وكتب فى نهايته : « تم تفسير الجزء الثانى عشر فى المحرم ١٣٥٤ هـ والله نسأل توفيقنا لاتمام سائر هذا التفسير بما يرضاه وله الحمد والمنة » .

ولكن المنية عاجلته فلقى ربه قبل اتمامه .

وعلى الصفحة الأولى من تفسير المنار نجد العنوان التالى :

تفسير القرآن الحكيم

« تفسير سلفى أثرى مدنى عصرى ارشادى اجتماعى سياسى » .

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور ، وصريح المعقول ، وتحقيق الفروع والأصول وحل جميع

مشكلات الدين ، ودحض شبهات الماديين والجاحدين واقامة حجج الأسلام ، وبيان سياسته المثلى فى اصلاح الانام ، مع حكم التشريع وسنن الله فى الاجتماع . وكون القران هداية عامة للبشر فى كل زمان ومكان ، وحجه الله البالغه ، وايته المعجزة الخالدة ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هـذا العصر من الضعف والعجـز ، وقد أعرض أكثرهم عنها ، وما كان عليه سلفهم من السـيادة والعزة اذ كانوا معتصمين بحبلها ، بما يثبت أنهـا هى السبيل لسعادة الدنيا والدين مراعى فيـه السهولة فى التعبير ، مجتنباً كثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث تهتدى به العامة وهو منتهى طلبة الخاصـة وهذه هى الطريقة التى توخاها فى دروسه فى الأزهر حكيم الاسلام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

(الأجزاء من ١ ــ ١٢) تأليف السيد محمد رشـيد رضا ــ منشىء مجلة المنار) .

وهذا العنوان المطول يعطى فكرة صـادقة عن تفسير

المنار ، كما تميز تفسـير المنـار ـ أيضاً ـ بفهرس أبجدى ييسر للباحث الوصول الى هدفه ، ويرشد الى عقلية مرتبة فى التأليف والتفسير جعلت من تفسير المنار موسوعة اسلامية فى الفقه والأصـــول والتشريع والسياســة الشرعيـة ، والتاريخ ، وغير ذلك من العلوم الاسلامية .

١٠ ـ منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن :

ظل القرآن الكريم على مر القرون مصدر الهداية وطريق الاصلاح ، لقد جمع العرب بعد تفرق ، ووحدهم بعد شتات ، وأعطاهم مفاتيح الأرض ، فأداروها فى أقفالها ، ففتحوا المشارق والمغارب وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

ومرت الأمة الاسلامية بفترات من التخلف والركود، هجر فيها القرآن ، وتركت تعاليمه ، فتغيرت حال الأمة من عز الى ذل ، ومن نصر الى هزيمة ، مصداقا لقوله سبحانه : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وقد ظهر الامام محمد عبده فى فجر النهضة

الحديثة ، فاتخذ من تفسير القرآن الكريم منبرا لتوجيه الأمة ، وتربية أبنائها وبث روح الايمان فى قلوبها ، وكان تفسيره فتحا جديدا وطريقة رائدة تأثر بها كثير من أئمة الاصلاح والتوجيه ، وأساتذة التفسير والتشريع فى العصر الحديث .

ويعتمد منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن على تسعة أسس :

الأساس الأول - عموم القرآن وشموله :

لقد ختم الله الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وختم الكتب السماوية بالقرآن الكريم ، وهو كتاب البشرية الخالد (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ، « ومعانى القرآن عامة وشاملة وارشاده مستمر الى يوم القيامة فلا يحمل وعظه ووعده ووعيده على أشخاص بعينهم ، وانما نيط وعده ووعيده وتبشيره وانذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التى توجد فى الأمم والشعوب » (١) .

---

(١) تفسير المنار ، ١/١٧٩ - ١٨٠ .

وكثيرا ما كان يتوسع الأستاذ الامام فى معنى الآيات أو يحمل النظير على النظير ليطبق القرآن على ما هو واقع بين الناس : فهو اذ يفسر الآيات الواردة فى صفات المنافقين من أول سوة البقرة ، يطبق هذه الصفات على المنافقين فى عصرنا ، وفى كل عصر « فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين ان هذه الآيات نزلت فى المنافقين الذى كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيتوهم أنها لاتتناوله وان كانت منطبقة عليه ، لأنه لم يتخذ القرآن اماما وهاديا ، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له ، بل اكتفى من ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه فى كل ما هم فيه » .

الأساس الثانى ــ الوحدة الموضوعية للسورة ووصل الآيات بعضها ببعض :

لكل سورة من سور القرآن روح يسرى فى أجزائها وفكرة عامة تربط بين آياتها وقد كانت فكرة التناسب والتناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه فى تفسيره وفى ترجيح بعض آراء سابقيه على بعض ، بل ربما روى آراء السابقين من المفسرين ثم رفضها جميعها لأنها لاتحقق

التناسق بين الآيات ، فنراه يستهل تفسيره لسورة الفجر قائلا : « كثر الخلاف بين المفسرين والرواة فى معنى كل من الفجر وليال عشر ، وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ، ثم يأتى فى الليالى العشر بما لا يلائمه ، وغالب ذلك يجرى على خلاف ما عودنا الله فى نسق كتابه الكريم» .

ثم يفسر الفجر بأنه جنس ذلك الوقت المعروف الذى يظهر فيه بياض النهار فى جلد الليل ، وينبعث الضياء لمطاردة الظلام . ويفسر الليالى العشر بالليالى العشر الأول من كل شهر ، وهى الليالى التى يبتدىء فيها تكون الهلال ، ولا يزال يشق الظلام الى أن يغلبه فينشر نوره على الأفق ، فكأنه وضع التناسب على شىء من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ، وضوء الأهلة يغالب الظلام الى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه .

والوحدة فى منهج السورة القرآنية تتميز عن الوحدة الفنية فى الانتاج الأدبى للانسان ؛ فالقصة مثلا ، لها قواعد فنية تحكم تأليفها مثل العقدة والصراع والمأزق والحل .

ولكن القرآن الكريم كتاب هداية ، قد يكتفى من

ذكر القصة أو الحادثة بما يحقق هذه الهداية ، وأحيانا يبسط الموضوع وأحيانا يوجزه حسب مقتضى الحال .

وأحيانا يترك الموضوع ويتكلم عن شيء مناسب أو مجانس ، ثم يرجع الى الموضوع الأول أو ينتقل الى غيره ، وهذا مسلك لو اتبعه بشر لكان تأليفه تافها ساقطا ، ولكن القرآن كتاب الله وهو على كل شيء قدير . ومن قدرته أنه يؤلف بين الأجناس المختلفة ، فترى بينها نهاية التضام والالتحام . وكل امرىء يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل ، هل يجد لديه من هزة الاستحسان فى هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة ، قد صفت فيها ضروب الفوائد والمتع ، ثم جعلت تمر به فى أبدع تنسيق وأحسن تقويم ؟ اللهم لا فذلك كذلك (١) .

ويميل الأستاذ الامام الى أن فكرة السورة يجب أن تكون أساسا فى فهم آياتها ، والموضوع يجب أن يكون

---

(١) د. محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم : ص ١٦٢ حاشية

أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيه ، وكان هذا من أسباب رفضه كل تفسير لا يحقق التناسق والتوافق بين أجزاء السورة (١) .

وتأثر به في ذلك أساتذة التفسير فى العصر الحديث كالسيد الأستاذ رشيد رضا ، وفضيلة الأستاذ محمد مصطفى المراغى ، وفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز ، وفضيلة الأستاذ محمود شلتوت .. وغيرهم .

الأستاذ الثالث : اعتبار القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع وتقديمه على كلام الفقهاء ومذاهبهم المشهورة :

وقد اعتمد الامام على القرآن وحده فى اباحة التيمم للمسافر مع قدرته على استعمال الماء مخالفا فى ذلك جميع المذاهب ، معتمدا على قوله تعالى : (وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم

---

(١) انظر تفسيره لقوله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) تفسير المنار ، ٣/٢٩٣ .

وأيديكم ان الله كان عفوا غفورا) سورة النساء الآية ٤٣ ، وتكرر ذلك فى سورة المائدة آية ٦ . وقد شايعه في هذه الطريقة تلميذه السيد رشـيد رضا ، فاسترسل مؤكدا أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلتمس فيه أولا فان وجد فيه يؤخذ وعليه يعول ، فان لم يوجد الحـكم فى القرآن نلتمسه من سنة الرسول (ص) قال السيد رشيد رضا :

« سيقول أدعيـاء العلم من المقلدين : نعـم ان الآية واضـحة المعنى على الوجـه الذى قررتم ولكنها تقتضى أن التيمم فى السفر جائز ولو مع وجـود الماء وهـذا مخالف للمذاهب المعـروفة عندنا ، ونقول لهؤلاء المقلدين : ان ظاهر الآية متفق مع غيره من الرخص الشرعية للمسـافر التى منها قصر الصلاة وجمعها ، واباحة الفطر فى رمضان ، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمســافر فى ترك الغسل والوضوء ، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ؟ » .

« هل يقول منصف ان صلاة الظهر أو العصر أربعا فى السفر ، أسهل من الغسل أو الوضوء فيه ؟

ان السفر مظنة المشقة يشق فيه غالبا كل ما يؤتى فى الحضر بسهولة ، وأشق ما يشق فيه الغسل والوضوء ، وان كان الماء حاضرا مستغنى عنه . تفسير المنار ١٢١/٥ .

ومما ينبغى مراعاته فى هذا المقام أن الفقه الاسلامى قد مر بمراحل يمر بها الكائن الحى وهى عصر النشأة وعصر الشباب ، وعصر النضج والكمال وأخيرا عصر التقليد .

وفى عصر التقليد التزم الفقهاء والمفسرون مذاهب أئمتهم وتعصبوا لها بل حملوا القرآن عليها وفهموه فى ضوئها ؛ فانتقد الامام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا هذه التفاسير التى تقدم آراء المذاهب على كتاب الله ، وبينا أن القرآن امام غير مأموم وأصل وما عداه تبع له .

الأساس الرابع : محاربة التقليد والجمود :

(أ) لقد ذم الامام التقليد فى تفكير المسلم المتأخر وأوجب الرجوع الى فهم المسلمين الأولين للقرآن .

ووجد أن آيات القرآن الكريم حافلة بالدعوة الى

استخدام العقل والفكر وحث الانسان على التأمل والنظر والاستنباط . كما ذم القرآن تقليد السابقين تقليدا أعمى لا تدبر فيه . قال تعالى : (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) البقرة / ١٧٠ .

فالتقليد المذكور في هذه الآية قبيح مذموم ، وقريب من هذا النوع عند الامام ، تقليد العلماء الذين يصرحون بأنهم مقلدون لا يلزمهم النظر في الكتاب والسنة بل يعتمدون على ما كتب غيرهم في الفقه ويدينون لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها ويكتفون بقولهم : وكلهم من رسول ملتمس .

وفي تفسير الامام لقوله تعالى : (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) البقرة / ١١١ ، نراه يستدل بآخر هذه الآية على أن القرآن علم أهله أن يطالبوا الناس بالحجة ، لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب

اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه اليه . وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح . قالوا بالدليل . وطالبوا بالدليل ونهوا عن الآخذ بشىء أبدا من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد . حتى كأن الاسلام خرج عن حده ، أو انقلب الى ضده ، وصار الذين يعلمون أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بابطال التقليد ، وبالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم الناس استقلال الفكر مع المشاورة فى الأمر . يطالبون المسلمين بالرجوع الى الدليل ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل ، وياليته الأخذ بقول الله وقيل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان » (١) . (ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) سورة النجم الآية ٢٣ .

(ب) وقد كان الأستاذ الامام متأثرا فى ذلك بحالة المسلمين الراهنة وما أصابهم من ضعف سياسى وضعف فى الثقافة الاسلامية الموروثة التى لصق بها من عوامل الضعف

---

(١) المنار ١/٢٢٤ .

والتقليد ما جعلها عاجزة عن ان تواجه تيار الحياة المتجدد ، وعاجزة عن ان تواجه الحياة الحديثة فى اسلوبها وان تلائم بين أحداثها وتعاليم الاســـلام ، بينما كان لطوافه فى أوربا واطلاعه على نهضة القوم واتباعهم المنهج العلمى الحديث فى البحث والمقارنة والاستنتاج أثره فى دعوته المسـلمين الى ترك التقليد واحترام عقولهم والاعتماد عليهـا فى الفهـم والاستنتاج والاستنباط .

وهو لذلك يدعو العلماء الى الاعتماد على كتب القرون المتوسطة كالقرن الثالث والرابع الهجرى . وعدم الاعتماد على كتب القـرون المتأخـرة التى ألفت فى عهـد الضعف السياسى والفكرى ، ويضرب مثلا فيقول : « هذا الشوكانى لما كسر قيود التقليد الأعمى . حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها . ان حـالة الفقهاء هى التى ضيعت الدين ، ان الناس تعرض لهم باختـلاف الزمان أمـور ووقائع لم ينص عليها فى الكتب فهل يوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟ هذا لايستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الأحكام الشرعيـة ولجئوا الى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا

لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص ، فاضطر الناس الى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب ، والفقهاء هم المسئولون عند الله عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة للشريعة ، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن اتباعها (أى كأحكام الضرورات) لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ، ويجعلونها كل شيء ويتركون لأجلها كل شيء ، يقرءون الأصول ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله أو يبحث عن دليله ، بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر فى الكتاب والسنة » (١) .

(ج) وقد كان تفسير الأستاذ الامام للقرآن الكريم

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٩٤٤ ، ٩٤٥ .

محاولة موفقة لاظهار هذا التراث الاسلامي مسايرا للتطور موافقا لمصالح الناس في كل زمان ومكان .

ودعا الامام المسلمين الى الاجتهاد ونادى بفتح باب الاجتهاد ، وحارب الوهم الذى انتشر بين الناس القائل بأن باب الاجتهاد قد أغلق منذ قرون .

ومن اسباب ثورة الاستاذ الامام على التقليد وندائه بضرورة الاجتهاد « أن الحياة الانسانية للمجتمع الانسانى حياة متطورة ويجد فيها من الاحداث والمعاملات اليوم مالا يعرفه أمس هذه الجماعة ، والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وتعاليم الاسلام. ولو وقف الأمر بتعاليم الاسلام عند حد تفقه الأئمة السابقين لسارت الحياة الانسانية فى الجماعة الاسلامية فى عزلة عن التوجيه الاسلامى . وبقيت أحداث هذه الحياة فى بعد عن تجديد الاسلام اياها . وهذا الوضع يحرج المسلمين فى اسلامهم كما يحرجهم فى حياتهم » (١) .

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث : للدكتور محمد البهى ص ١٢٧ .

(د) وقد كان الامام مصلحا ومجتهدا ، فراعى المصلحة العامة فى تفسيره للقرآن الكريم وفى فتاويه العامة.

وطالب الحكام وأولى الأمر والفقهاء برعاية مصالح الناس فى أحكامهم وفتاويهم :

« فالشريعة الاسلامية عامة باقية الى آخر الزمان ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق فى كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران ، فاسس الشريعة حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال . وقد استخرج الأئمة والفقهاء رضى الله عنهم القواعد الكلية والأحكام الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الأصول الخمسة ، ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعانى لا بالألفاظ ، وأن الضرورات تبيح المحظورات وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر اذا ضاق اتسع ، وأن الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام ، والضرر الأشد يزال بالأخف ، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان . ومن فهم كلام أئمة الفقه حق فهمه ألفاه ، لايتعدى هذه القواعد » (١) .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ٣١٤/١ .

وقد درجت الشريعة على رعاية المصالح ، فالقرآن يقول : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ويقول أيضا : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) . والأحاديث النبوية تقول « لاضرر ولا ضرار » وتقول أيضا « يسروا ولا تعسروا » كما أن السلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جروا على مراعاة المصالح فيما لا يحصى من المسائل . من ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه استخلف عمر مع أن رسول الله (ص) لم يستخلف . وجمع صحف القرآن المتفرقة ولم يجمعها رسول الله (ص) وحارب مانعى الزكاة ، ولم يكن لشرب الخمر حد مقدر فجعله أربعين . وعمر رضى الله عنه لم يستخلف كما استخلف أبو بكر ، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم فى الصدقات وهو ثابت بالنص ، وأسقط حد السرقة عام المجاعة وهو منصوص ، وكان يشاطر من يتهمه من الولاة فى ماله لاختلاط أموالهم الخاصة بأموال استفادوها بسلطان الولاية ، وقتل الجماعة بالواحد حين اشتركوا فى قتله ، وأوقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا حين تتابع الناس فيه وكان

يحسب واحدة قبله . وأفتى بتطليق زوجة المفقود بعد أربع سنين من فقده وانقطاع خبره ، ومنع بيع أمهات الأولاد ، وترك التغريب في الزنا حين لحق أحد المغربين بالروم وتنصر ، ونفى نصر بن حجاج ـ وكان شابا جميلا ـ حين سمع بعض النساء يشبب بما يغريه ، وغير ذلك كثير (١) .

الأساس الخامس : اعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمى فى البحث والاستنباط :

وهذا الأساس مرتبط بالأساس السابق ، فلئن كان ترك التقليد مبدأ أساسيا سلبيا ، فان النظر والتأمل والاستنباط مبدأ ايجابى . وهذا المبدأ يزعم الغربيون أن الفضل فى العمل به يرجع الى العلامة بيكون الفيلسوف الانجليزى ـ الذى دعى الى المنهج الحديث القائم على المشاهدة والتفكير المنظم .

وقد بين الامام فى أكثر من موضع أن هذا المبدأ قديم فى أساسه ، فالقرآن الكريم حافل بآيات تدعو الانسان

(١) أصول التشريع الاسلامى للأستاذ على حسب الله ص ٨٥ .

الى النظر فى الكون وتدبر آياته وعجائبه ، بل اعتبر القرآن الكون كتابا مفتوحا يجب على كل انسان أن يتأمل فى عجائبه وقوانينه ونواميسه قال تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) يونس / ١٠١ .

والاسلام فى أساسه قائم على الاقناع واليقين ، قال تعالى : (لا اكراه فى الدين) البقرة / ٢٥٦ ، ويرفض القرآن دعوى الايمان اذا كانت قولا باللسان لايؤيده الجنان، قال تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) الحجرات / ١٤ .

وقد اتبع الامام هذا الطريق فى تفسير القرآن وفى رسالة التوحيد التى كتبها فى أسلوب سهل ونظمها وبوبها وبين فيها فوائد الدين وميزة الاسلام فى محاربة التقليد قال الامام : « أمر الاسلام بالتوحيد فأصبح الانسان عبدا لله خاصة حرا من العبودية لكل ماسواه أنحى الاسلام على التقليد وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومه » (١) .

---

١) رسالة التوحيد تاليف الامام محمد عبده ص ١٨١ .

وقد نبه الامام أبناء جيله الى الاجتهاد وتأثرت به مدرسة من العلماء تتبعت آراءه واعتنقت أفكاره ومن هذه المدرسة فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، فقد بين فضل القرآن فى دعوة الناس الى النظر والتأمل واستشهد بجملة من الآيات مثل (ألم تر أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (١) •

(الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (٢) • ثم قال الشيخ شلتوت : « ومن هذه الآيات وغيرها وهو كثير واضح فى القرآن الكريم يتجلى أن الاسلام قد وجه الانسان الى البحث وتعرف خصائص الكائنات وأسرارها والانتفاع بها فى بناء الحياة » (٣) •

---

(١) لقمان/٢٠ •

(٢) الجاثية/١٢ •

(٣) منهج القرآن فى بناء المجتمع لفضيلة الأستاذ محمود شلتوت ، ص ٥٣ •

الأساس السادس : تحكيم العقل حتى أنه يحاول تفسير خوارق العادات بما يقارب المألوف :

وقد أولَ الامام بعض الآيات والمعجزات تأويلا مجازيا حتى يخضعها لقانون الأسباب والمسببات بدلا من أن تكون داخلة في دائرة المعجزات .

فذكر أن الملائكة قوى ترشد الى الخير وتهتف به في نفس الانسان .

وأول سجود الملائكة بخضوعها وامتثالها لأمر الله .

وذكر أن معصية آدم حين أكل من الشجرة رمز لقدرته على فعل الخير والشر .

وهكذا كان للامام رأى في خلق عيسى خلاصته أن الروح لها أثر كبير على الماديات ، فالكهرباء والرياح العاتية تفتك بالمادة ، ولما كان الملاك روحا فقد نفخ في جيب درع مريم ، ولما بشر الله مريم بأنها ستحمل وهى على ماهى عليه من صحة الايمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل في الرحم فعل التلقيح ، كما يفعل الاعتقاد القوى

فى مزاج السليم فيمرض أو يموت وفى مزاج المريض فيبرأ . وكان نفخ الروح متمما لهذا التأثير .

ونحن نرى أن خلق عيسى كخلق آدم وحواء كله داخل فى أمر المعجزة والله على كل شىء قدير فلا يحتاج لأسباب ملموسة لأنه داخل فى قدرة الله وهو سبحانه خالق الأسباب ، واذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

وقد فسر الامام الجن والسحر والحسد وغيرها تفسيرا عقليا أثار ضجة بين العلماء ، فهو لم ينكر وجود الجن كما فعل بعض المعتزلة ، وانما شدد النكير على الخرافات التى تتصل بالجن وجوز أن يكون لهم أثر فيما يسمى بالصرع . وذكر أكثر من مرة فى تفسيره أن الجن يمكن أن يطلق على الميكروب الخفى الذى يسبب كثيرا من الأمراض .

وذهب الامام الى عدم امكان رؤية الجن موافقا بذلك الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : (انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) الأعراف / ٢٧ .

وأما رؤية النبى (ص) للجن فأمر خاص به صلى الله

عليه وسلم يحفظ ولا يقاس عليه لأنه معجزة خاصة برسول الله . واذا تتبعنا مادة الجن فى اللغة وجدناها تلازم معنى الستر والاختفاء مثل جن الظلام ، أى ستر .

والجنين والأجنة فى بطون أمهاتها مستورة ، وجن فلان اذا ذهب عقله فاختفى واستتر ، المجن : هو الترس الذى يحتمى به الانسان فيستره من الاصابة .

السحر :

ذهب الامام الى أن السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة ، وحمل السحر على الأمور المعنوية والافساد بين الناس ، وذكر أن النفاثات فى العقد هم النمامون المقطعون لروابط الالفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم .

وقد كان الامام متأثرا بالمعتزلة فى انكار حقيقة السحر . قال الزمخشرى : « يجوز أن يراد بالنفاثات فى العقد النساء الكيادات من قوله : (ان كيدهن عظيم) تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد . أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن

لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك » (١) .

وتتلخص آراء الامام فى السحر والنفاثات فى العقد فيما يأتى :

١ ـ السحر ليس جزءا من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الانسانية متروك الى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقه .

٢ ـ جاء ذكر السحر فى سورة البقرة ولا يستلزم ذلك اثبات ما يعتقد الناس منه فالقرآن قد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وان لم تكن صحيحة فى نفسها كقوله تعالى : (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) الكهف / ٩٠ .

٣ ـ جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين :

(أ) اما حيلة وشعوذة .

(ب) واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس

---

(١) تفسير الكشاف ٤/٢٤٤ .

ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحرا
لخفاء سببه ولطف مأخذه ويمكن أن يعد منه
تأثير نفس فى نفس أخرى •

٤ ـ السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة ولذلك
قال سبحانه : (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى)
طه / ٦٦ •

فسحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال
والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى •

٥ ـ اعتاد من يتخذ السحر وسيلة أن يستعين بأسماء الجان
والشياطين فيعتقد الدهماء أنه يستعين بهم ويلقى ذلك
فى روعهم وهذا الوهم يصنع صنع السحر •

ولا يستطيع الساحر أن يؤثر الا فى شخص عزيمته
هباء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه ، فينتهز ذلك
الساحر ليوهمه بما يشاء •

الامام ينفى أن يكون الرسول قد سحر :

وهذا موجز لأدلته :

١ ـ القرآن نفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم فهو ليس بمسحور قطعا .

٢ ـ حديث سحره عليه السلام حديث آحاد والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد لأن عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد ولا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين . فعلينا أن نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب .

٣ ـ نافى السحر بالمرة لا يصح أن يكون مبتدعا لأنه لم يأت شىء يوجب الايمان بالسحر على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة .

٤ ـ المراد بالنفاثات فى العقد نفث المفسدين سمومهم بالكذب والغيبة والنميمة وقالة السوء فى عقد الصلات بين الناس حتى يفكوا عرا الزوجية والمودة والرحمة

وغيرها • وشر هذا فى الناس أكثر جدا من شر من يقولون انهم سحرة •

وقد ناقشت رأى الامام فى شيئين :

١ ـ السحر عموما •

٢ ـ سحر الرسول (ص) خصوصا •

فالامام يريد أن ينفيهما ، وقد رأيت ثبوتهما •

(أ) ثبوت السحر :

١ ـ السحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفقهاء ، والسحر يؤثر مرضا وثقلا وعقدا وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك من الآثار الموجودة والتى تعرفها عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به •

٢ ـ بين الامام أن السحر تخييل للأعين •

ونقول فى الرد عليه اذا جاز على الساحر أن يسحر جميع عيون الناظرين ويغير احساسهم حتى يروا الساكن

متحركا والمتحرك ساكنا جاز أن يغير صفات الناس حتى يجعل المحبوب اليها بغيضا والبغيض محبوبا .

٣ - نقل الامام أن السحرة فعلوا بالحبال ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت . وهذا مردود من وجوه :

(أ) لو كان عمل السحرة ينحصر فى دهن الحبال بالزئبق لما احتيج الى القاء العصا لابتلاع الحبال بل كان يكفى اخراج مافى الحبال من الزئبق وغيره . وذلك يكون أوقع فى ابطال عمل السحرة . وتبين أن عملهم من الوهن والضعف بحيث يكفى لابطاله أن يتقدم أى انسان فيزيله من على الحبال .

(ب) قال تعالى حكاية عن السحرة : (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) الاعراف / ١١٦ . فبين سبحانه أن

أعينهم سحرت وذلك اما أن يكون لتغير حصل في المرئى أو لتغير حصل فى الرائى •

والساحر يفعل هذا وهذا • فتارة يتصرف فى نفس الرائى واحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به • وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها •

(ب) ثبوت سحره عليه أفضل الصلاة والسلام :

١ ـ ثبت سحره عليه الصلاة والسلام بالروايات الصحيحة المتعددة •

٢ ـ قال الامام ان سحره عليه السلام يخالف القرآن لأنه قد نفى عنه السحر • والجواب أن القرآن نفى عنه السحر الذى يصيب عقله بالخبل والجنون • قال الكشاف : « المسحور الذى لايتبع هو الذى فسد عقله بحيث لايدرى ما يقوله فهو كالمجنون » ولهذا قالوا فيه : (معلم مجنون) الدخان / ١٤ •

والحديث أثبت السحر الذي يصيب الجسم بنوع من الثقل أو المرض بحيث لا يمنـــع ذلك من اتبـــاعه عليه الصلاة والسلام ، فلا تعارض بينهما .

٣ ــ قال الامام ان سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم .

والجواب أنه سبحانه يمتحن عباده وأولياءه وأصفياءه كما يمتحن أنبياءه ورسله بايذاء قومهم لهم بالضرب والقتل أو السحر الذى يوهن الجســم . رفعا للانبياء فى درجاتهم واملاء للكفار حتى تمتلىء صاعهم فيستحقوا ما أعد لهم .

ويتضـــح لك أن الخلاف بينى وبين الامام ليس على سحر الرسول عموما بل على سحر موجه الى جسم الرسول دون عقله . فبيننا عموم وخصوص مطلق ، فقد اجتمعنا على نفى السحر عن عقل الرسول (ص) وانفرد الامام بنفس السحر عن الرسول فى بدنه . وانفردت أنا باثبات ســحر الرسول فى بدنه عليه الصلاة والسلام .

٤ ــ ومذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرا حقيقيا وليس كله حيلا ومنه أنه أثر فى جسم النبى (ص) وخياله دون عقله

وروحه فكان يخيـل اليه أنه أتى نساءه ولم يكن أتاهن ، ولم يتجاوز هذا الحد (١) ٠

وذلك ما يعبر عنه في أيامنا بالرباط (وهو عدم القدرة على اتيان النساء) وهذا أمر يتعلق بالجسم والخيال لا بالعقل والروح ٠

وأرى أن الأستاذ الامام كان متأثرا فى نفيه السحر عن الرسول (ص) بعدة أمور :

١ ـ محاولة اظهار الاسلام أمام المستشرقين والمتمدينين بمظهر الدين العلمى المنهجى الذى لايعترف بالسحر ولا بالخرافة ٠

٢ ـ وجد الامام فى آراء المعتزلة تراثا عقليا وذخيرة فكرية فهم يرفضون الايمان بالسحر والكهانة والشفاعة وكرامات الأولياء ٠

٣ ـ لما كان هدف الامام من انكار السحر محاربة الخرافة

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص ٥٩ حاشية ، للسيدرشيد رضا ٠

واظهار الاسـلام بأنه دين العقل ، واعترض طريقه حديث صحيح قال انه حديث آحاد « والحديث الذى يصـل الينا عن طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به حجة . وعلى فرض صحته يؤول أو يفوض الأمر فيه » (١) .

« وغره أن المقلدين يسلمون له بالتأويل ولو متكلفا ، ونسى أن أعداء الاسلام ومستقلى الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذى لايطمئن له القلب » (٢) .

سند حديث السحر :

اذا رجعنا الى كتب الحديث نجـد أن حديث السحر الذى ذكرناه مروى بأصح الأسانيد . فان سـنده هشـام ابن عروة عن أبيـه عن عائشـة . وهذا السند من أصح

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨٤ .

(٢) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٩ ، حاشية ، للشيخ رشيد رضا .

الأسانيد المروية عن عائشة (رضى الله عنها) ان لم يكن أصحها (١) ٠

الأساس السابع : عدم الخوض فى تعيين ما أبهمه القرآن :

١ ـ القرآن الكريم كتاب هداية يذكر من الأخبار والحوادث وأحوال السابقين ما يحقق هذه الهداية ويمسك عما لا فائدة من ذكره فالبحث عنه تكلف ٠ ففى تفسير قوله تعالى : (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) البقرة / ٥٩ ، يقول الامام : « ونسكت عن تعيين نوع الرجز كما هو شأننا في كل ما أبهمه القرآن » (٢) ٠ ونلاحظ أن الرجز هو العذاب ، ولكن الامام يرى ألا نخوض فى نوع هذا العذاب فلا نصفه بأنه كان رجما بالحجارة أو خسفا أو غير ذلك ٠

---

(١) كتاب الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ٠

(٢) المنار ١/٣٢٥ ٠

٢ ـ الصراط والميزان والجنة والنار : ذكر القرآن أمورا تتعلق بعالم الآخرة كالصراط والميزان والجنة والنار والصحف والكتب واللوح المحفوظ والكرام الكاتبين •

وقد أفاض بعض المفسرين في وصفها وبيان ماهيتها من غير اعتماد على سند قوى ، وعلى الرغم من افاضتهم لم يصلوا الى ما يشفى النفس فى معرفة حقائق هذه الأشياء •

وكان تفسير الامام لهذه الغيبيات مختصرا وواضحاً • فهو يوافق رأى السلف فى أن علينا أن نؤمن بها كما وردت وأن نفوض معرفة حقيقتها الى الله تعالى •

فالميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه دخل الجنة ومن خفت موازينه دخل النار علينا أن نؤمن به كما أخبر القرآن •

« عليك أيها المؤمن الى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسل كيف

يزن ولا كيف يقدر ، فهو أعلم بغيبه والله يعلم وأنتم لاتعلمون » (١) .

والجنة دار النعيم يتمتع بها المؤمنون يوم القيامة وعلينا أن نعتقد أن النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذائذ الدنيا ، وأنها دار خلد وأن من دخلها من أهلها لايخرج أبدا ولا يجوز لنا البحث في حقيقتها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع بها فان ذلك لايعلمه الا الله (٢) .

والنار هي دار العذاب في الآخرة يعذب بها أهل الكفر والطغيان والواجب علينا الايمان بها والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب في نار الدنيا ، وأنها تسعر وتوقد على المعنى الذي يريده الله ، أما كون الايقاد بالحطب أو الفحم الحجرى أو الخشبى أو ما أشبه ذلك مما هو معروف في حياتنا هذه فذلك غير واجب أن نعتقد به (٣) .

والصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال ، والذي يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد

---

(١) تفسير جزء عم ، للامام محمد عبده ، ص١٣٩ .

(٢) و (٣) نفس المرجع ص ١٤٠ .

تظهر لهم ثابتــة مبينة لا يرتابون فيهــا يوم الجزاء ، ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال (١) .

وكتابة الله واحصاؤه لأعمال الانسان هي كتابة على النحو الذى يليق بتنزيه الله تعالى وهى أعلى من كتابتنا التى نعرفها وأشــد منها ضبطا لكنا لانكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به ونكل علم حقيقته الى الله (٢) .

وأحيانا يعرض الامام رأى السلف والخلف مفضلا رأى السلف . ففى تفسير قوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا صفا) الفجر / ٢٢ ، يقول :

« أما اسناد المجيء لله فى هذه الآية ففيه رأى السلف رضى الله عنهــم ، وهو أن ذلك مجيء نؤمن به ولانطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الالهى فى ذلك اليوم وهو الأفضل .

وفيه مذهب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك

---

(١) تفسير جزء عم ، ص ٢٧ ، للأستاذ الامام محمد عبده .
(٢) نفس المرجع ص ٦ ، ص ٨٤ .

أو أنه من قبيل التمثيل لتجلى السطوة الالهية على القلوب كما تتجلى أبهة الملك للأعين اذا جاء فى جيوشه ومواكبه ولله المثل الأعلى » (١) .

القضاء والقدر :

سلك الامام هذا المسلك الروحى العملى فى شرح القضاء والقدر ، وصرح فى تفسيره لسورة العصر : « بأن مسائل علم الله وقضائه السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هى من سر القدر التى لاتكاد العقول أن تصل اليه » .

« فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه ، وبأنه يجب عليه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة اليه ، وأن يعمل بما أمره به ويتجنب ما نهاه عنه وذلك باستعمال تلك الحرية التى يجدها من نفسه » (٢) .

---

(١) نفس المرجع ص ٦ ، ص ٨٤

(٢) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ٧٠ .

الأساس الثامن : التحذير من الاسرائيليات

القرآن كتاب عربي مبين وهو غني في شرحه وتفسيره عن اللجوء الى الاسرائيليات والأقاصيص اليهودية التي لايعلم صدقها من كذبها ، وقد نبه الامام الى خطأ المفسرين السابقين في حكاية القصص الواهية بجوار التفسير ، وفي تفسير الامام لقوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد) الفجر / ٦ و ٧ ، يقول :

« وقد يروى المفسرون هنا حكايات في تصوير ارم ذات العماد كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله فاذا وقع اليك شيء من كتبهم ونظرت في هذا الموضع منها فتخطى بصرك ما تجده في وصف ارم واياك أن تنظر فيه » (١) .

الأساس التاسع : تنظيم الحياة الاجتماعية على أساس من هدى القرآن :

١ ـ وضح الامام أن القرآن جامع لأصول العمران وسنن

(٢) تفسير جزء عم ، ص ٧٩ .

الاجتماع وموافق لمصلحة الناس مع اشتماله على الهداية العامة للبشر فى كل زمان ومكان ٠

ونادى بوجوب تنظيم المجتمع على أسـاس متين من هدى القرآن مع حسن الفهم ومرونة التطبيق ، فاذا دعا القرآن الى انفاق المال فى سبيل الله ، فان ذلك يشمل انشاء الجمعيات الخيرية والمؤسسات التعليمية والملاجىء والمستشفيات وكل ما من شأنه أن ينهض بالمجتمع لأن صلاح المجتمع فى ذلك العصر لايتم الا بهذا التنظيم ٠ ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب ٠

٢ ـ حق الفرد والمجتمع :

وقد اهتم الامام فى تفسيره باشعار الفرد بحق المجتمع عليه ، فلا تتحقق انسانية الانسان الا بأسه بالآخرين واهتمامه بمصالحهم والعمل على تخفيف حدة التوتر بين الأغنياء والفقراء ، كما ينبغى أن يكون المسلم حسن المعاملة مع أهله وجيرانه وسائر أبناء جنسه ٠

قال فى تفسير قوله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به

شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمســاكين والجـار ذى القربى والجـار الجنب والصـاحب بالجنب وابن السـبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا) النسـاء / ٣٦ • اذا قام الانسـان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته ، وصلحت أعمـاله ، وقام بحقوق الوالدين فصـلح حالهما وحـاله • تتكون بذلك وحـدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد ، وبصلاح البيت الصغير يحدث له قوة ، فاذا عاون أهله البيوت الأخرى التى تنسب الى هذا البيت بالقرابة وعاونته هى أيضا يكون لكل بيت من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه أن يحسن بها الى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مئونة الحاجة الى الناس الذين لايجمعهم بهـم النسب وهم الذين عطفهم على ذوى القربى بقوله (واليتامى والمساكين) •

كما دعا الامام الى تنظيم الاحسـان حتى يثمر الثمرة المرجوة أما الكسـالى والمسرفون فالاحسـان اليهم تعطيل لمواهبهم وشـل لعناصر الانتـاج فى الأمة • ولذا يجب توجيههم ليكونوا مصـدر خير واسـعاد لا مصـدر تأخر وكساد •

٣ ـ الحكمة من تشريع العبادات :

بين الامام أن الحكمة من تشريع العبادات فى الاسلام هى تهذيب الروح وتربية الضمير وتقويم الخلق واصلاح السلوك الانسانى . ليكون المسلم عونا لأخيه المسلم ويغدو وقد سلم الناس من لسانه ويده ويصبح المؤمن أمينا على أموال الناس وأعراضهم ، وكل عبادة لاتحقق الغرض منها فهى مردودة لأنها فقدت أغراضها والأهداف المنشودة منها .

وفى تفسير قوله تعالى : (فويل للمصلين * الذى هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون) (سورة الماعون / ٤ ـ ٧) ـ يقول الامام : « الماعون كل ما يستعان به فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الأعمال الا ما يرى الناس مما لايكلفهم بذل شىء من مالهم ولايخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم أو نقصا يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم ولا ينهضون بباعث الرحمة الى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وطمأنينتهم

أولئك لاتنفعهم صلاتهم ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين (١) .

٤ ــ تقوية شخصية المسلم :

ولم يكن الامام يسير فى تفسيره فى دائرة مقفلة بعيدا عن أحداث الحياة فى عصره . بل تجاوب مع عصره وساهم فى اصلاح الحياة الاجتماعية فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية ، وأذكى نار الثورة العرابية ورأس تحرير جريدة الوقائع المصرية . فلا عجب أن يكون تفسيره للقرآن متأثرا برغبته فى الاصلاح الاجتماعى ومحاربته لعيوب الأمة التى خلفها الاستعمار من الخنوع والتواكل والكسل والنفاق وحب النفس والأنانية ، محاولا فى الوقت نفسه تقوية شخصية المسلم وامدادها بكل ما يؤكد الذات وينمى المواهب من حرية الفكر وسعة الأفق والاهتمام بالوطن ومساعدة المحتاج وكره الاحتلال وتوحيد الشعور بين الأمة الاسلامية .

---

(١) تفسير جزء عم للامام محمد عبده .

٥ ـ الدعوة الى التعليم :

حث الامام على التعليم ودعا اليه فى كثير من مواضع تفسيره باعتباره من أهم الوسائل لاصلاح المجتمع المصرى ، وبين أن التعليم يعود الى المجتمع بالتماسك والترابط ويحقق الروح الجماعية بين الأفراد ويرفع المستوى الثقافى والفكرى ، وبالتالى يعود على الوطن بالعز والارتقاء ، يقول الامام فى تفسيره لسورة العلق : « لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات » (١) وهى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) .

٦ ـ محاربة الترف :

حارب الامام الترف والبذخ والاسراف الذى كان متفشيا فى بلاط الحاكم ووجوه البلاد وبين أهمية المال وأنه

(١) تفسير جزء عم ، ص ذ.١٣٦ .

قوام الدولة وشنع على علماء المساجد تزهيدهم الناس فى الدنيا ، فأخلد الناس الى الكسل والخمول وانقطع جدهم ومجدهم وبذلك خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين « وما ذلك الا لجهل خطباء المساجد وعدم عملهم بما يعظون به غيرهم ، والواجب على المسلم العارف بالاسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة » (١) .

وقد أفاض الامام فى بيان أهمية المال للمسلم وللمجتمع عند تفسير قوله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) (النساء / ٥) .

٧ ـ أضرار تعدد الزوجات :

يذهب الامام الى أن الأصل فى الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تكون سكنا وأمنا ويترتب على الزواج بها الثقة والاطمئنان المتبادل ، وبين الامام مفاسد تعدد الزوجات واضراره بالمجتمع فى عصرنا ، وبين أن اباحة تعدد الزوجات مضيقة قد اشترط فيها ما يصعب تحقيقه فكأنه نهى

---

(١) تفسير المنار جـ ٤ ص ٣٨٤ .

عن كثرة الأزواج . وذلك عند تفسيره قوله تعالى (وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) (النساء / ٤) .

ثم يضم الى تفسيرها قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ (النساء / ١٢٩) .

ويرى الامام أن التعدد وان كانت له محاسنه فى عصر السلف حيث النفوس سليمة والقلوب نظيفة والجميع يمتثلون أمر الدين ويتقون الله رب العالمين ، فان التعدد له مساوئه في زمننا لكثرة مساوىء الناس وضعف أخلاقهم ، بل ان كثرة المعددين لزوجاتهم لا هم لهم الا قضاء الشهوة والمتعة المؤقتة والله لايحب الذواقين ولا الذواقات .

« فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة .. فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فاذا ترتب على شيء مفسدة

فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة : يعنى على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح • قال الامام وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل »(١)•

ومن مدرسة الامام فضيلة المرحوم الشيخ محمد المدنى ، فقد ذكر فى كتابه « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء » أن التعدد انما يباح اذا دعا اليه داع مثل حالة الوصى على اليتامى حيث يكون مضطرا للدخول عليهم ومراعاة شئونهم وفيهم من تصلح للزواج وهو يخشى على نفسه الفتنة • والمؤمن لا يرضى أن يكون فاتنا أو مفتونا ، فأباح الله للرجل فى مثل ذلك الظرف أن يكون له أكثر من واحدة اذا أمن الجور وبذلك يجمع بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب وبين وقاية نفسه ووقاية غيره من عوامل السوء والفتنة •

ويمكن القياس على هذا الغرض فيباح التعدد عند

---

(١) تفسير المنار ٤/٣٥٠ •

الحاجة إليه ويقيد التعدد اذا لم يكن له داع ، وهذا كله مشروط بأن يأمن الزوج عدم الجور فاذا خاف الجور وجب عليه ألا يعدد .

« وليس فى الشريعة ما يمنع أن يعهد بتقدير ظروف الناس فى التعدد الى هيئة رسمية اجتماعية أو قضائية ، وأن يقيد الناس فى التعدد بحكم هذه الهيئة جوازا أو منعا . فان التعدد مباح بشرطين : أن يكون له مبرر وداع شريف معترف به شرعا ، وشرط آخر هو ألا يؤدى الى الجور وعدم العدل .

فموقف هذه الهيئة التأكد من تحقيق الشرطين السابقين حتى لايقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به » .

وتلحظ مما تقدم أثر الامام فيمن جاء بعده من المجتهدين والمفسرين ، فقد نهج الامام منهجا حسنا ورسم

طريقة ناجحة للنهوض بالمسلمين وعلاج مشاكلهم وتقديم الحلول الحاسمة فى ضوء الشريعة وأصولها ، وحاجة المجتمع ومقتضيات العصر .

وقد كان الامام روحا جديدا ويقظة تناولت طريق الاصلاح ، وثورة فكرية فجرت عين الطريق فاستقى منها كل وارد واستفاد بخيرها القريب والبعيد .

لقد سن الامام فى التفسير سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة . ان شاء الله ، أجزل الله مثوبة الامام وجزاه عنا وعن الاسلام أحسن الجزاء .

الفصل الثاني

إعجاز القرآن

١ ــ معجزة الرسول الخالدة
٢ ــ وجوه الاعجاز
٣ ــ التحدى
٤ ــ بلاغة القرآن
٥ ــ العلم فى القرآن
٦ ــ عناصر الجمال الفنى فى القرآن
٧ ــ تصوير الحالات النفسية والمعنوية
٨ ــ خريطة القرآن

١ ـ معجزة الرسول الخالدة

أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالمعجزات ، والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة تصديقا له فى دعواه ، فهى بمثابة قول الله : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

وقد أيد الله رسله السابقين بمعجزات مادية ظاهرة ، تناسب البشرية فى أطوارها الأولى ، جعل الله النار بردا وسلاما على ابراهيم ، وأيد صالحا بالناقة تسقى قومه جميعا من ألبانها ، وأعطى موسى العصا وفلق له البحر ، وأعطى عيسى ابراء الاكمه والأبرص واحياء الموتى باذن الله .

وكان العرب يتطلعون الى أن ينزل على محمد عليه السلام معجزات مادية كما حدث للأنبياء السابقين :

(وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون)

(الأنعام : ١٠٩) •

ان الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أعلم بما يناسب كل نبى من المعجزات ، كان قوم موسى قد برعوا فى السحر وبلغوا فيه مبلغ السبق والاجادة فأعطاه الله اليد تخرج بيضاء من غير سوء ، والعصا تبتلع جميع أعمال السحرة •

اذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وكان قوم عيسى قد برعوا فى الطب ونبغوا فيه فأعطاه الله معجزات خارقة للعادة من جنس ما نبغ فيه قومه •

وكان العرب أفصح الناس لسانا ، وأبلغهم بيانا ولهم أسواق يتقارضون فيها الشعر ، واذا استجادوا قصيدة علقوها فى جوف الكعبة ، فسميت تلك القصائد بالمعلقات فخص الله رسوله بالقرآن الكريم معجزة الدهر وآية الفصاحة والبيان ، واستمع العرب للقرآن فأخذ بألبابهم ،

واستولى على اعجابهم ، ثم قاوموا هذا النفوذ وتواصـــوا بألا يستمعوا للقــرآن حقدا وحســدا (وقال الذين كفروا لاتســـمعوا لهذا القــرآن والغوا فيـــه لعلكم تغلبون) .

(فصلت : ٢٦) .

لقد قاوموا الرسالة والرسول (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) (النمل : ١٤) .

ولكن القرآن كان يأخذ سبيله الى القلوب ، ويستولى على النفوس فيفك أغلالهـا ، ويهدهد كبرياءها ويســل أضغانها فلا تلبث أن تنشرح له الصدور وان ترق له القلوب وأن تقشعر منه الجلود ، « وكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها اقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهـم الأول وأن يركنوا الى مسـالمته ، ويدخلوا فى دينــه وصـارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا » .

خرج عمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنــه ـ يريد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله ، فسار الى دار أخته وهي تقرأ سورة طه ، فلما وقع في سمعه القرآن لم يلبث أن آمن ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا الى المدينة فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار الا وفيه قرآن ، وقد روى عن بعضهم أنه قال : فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت : (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به) . (الجن ١ ، ٢) .

لقد شاء الله أن يكون القرآن معجزة خالدة أبد الدهر، فجعلها معجزة عقلية تخاطب الناس جميعا في كل زمان ومكان ، يؤيد ذلك قوله تعالى : (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) (الأنفال : ٢) وقوله سبحانه : (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » (المائدة / ٨٣) .

اقوال العرب فى القرآن :

تحدى القرآن العرب فوقفوا حيارى أمام بيانه وتصريفه القول ووجدوا نمطا فريدا لم يألفوه ، فهو ليس بالشعر وليس بالكهانة ، ولا يستطيع أن يقوله بشر ، فشهدوا بعظمته ونطقوا باعجازه ، « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

روى محمد بن كعب القرظى قال : حدثت ان عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا حليما ـ قال يوما : الا أقوم الى محمد فأكلمه فأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يكثرون .

قالوا بلى يا أبا الوليد . فقام اليه ـ وهو صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد ـ فقال : يا ابن أخى .. انك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وانك أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ، وكفرت من مضى من

آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك امورا تنظر فيها لعلك ان تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل ، قال : ان كنت انما تريد المال بما جئت به من هـذا القول جمعنا لك من أموالنا حتى تكون آكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك حتى لانقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكنـاك علينا ، وان كان هـذا الذى بك رئيا لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو لعـل هذا شـعر جاش به صدرك ، فانكم لعمرى بنى عبد المطلب تقدرون من ذلك على مالا تقدر عليه ، حتى اذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو قد فرغت ؟ قال : نعـم ، قال : فاسـمع منى ، قال : قل قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشـيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهـم لا يسـمعون (الآية ١ ــ ٤ فصلت) ، ثم مضى فيها يقرؤها ، فلما سـمعها عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها ، يستمع

منه حتى انتهى رسول الله (ص) الى السجدة منها فسجد ثم قال له : قد سمعت ما سمعت فانت وذاك . فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا : ما وراءك ، قال ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش اطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعته نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك بلسانه . قال : هذا رأيي فاصنعوا مابدا لكم (١) .

لقد نزل القرآن شفاء للصدور ورحمة للعالمين ، ودليلا للهداية وحصنا للدعوة ومعجزة خالدة أبدية : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) .

القرآن معجزة التاريخ :

القرآن أكبر معجزة عرفها التاريخ ، فقد ألف العرب على تعاديهم ، وزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم حتى

اكتسحوا دولتي الفرس والروم ، وهما يومئذ الدنيـــا القديمة ، وهما العينان فى رأس التاريخ .

واذا نظرنا الى معجزات الأنبياء والمرسلين رأينا القرآن الكريم أعظم المعجزات وأوضحها دلالة ، لأن الخوارق فى الغالب مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، وتأتى المعجزة شاهدة فقط ، أما القرآن فهو نفســه الوحى المدعى وهو الخارق المعجز فدلالته فى عينه ، ولا يفتقر الى دليل أجنبى عنه ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « مامن نبى الا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . رواه البخارى .

لقد يئس العرب من معارضة القرآن تيقنا انه لا قبل لهم بها واستبصارا فى حقيقة هذا الكلام وانه مما لا يستشرى الطمع فيــه وانه وحى يوحى ، وهو عينــه أيضـا بعض ما اجتذبهم اليه وعطفهم عليه حتى كان بلغاؤهم يستمعونه وتصغى اليه أفئدتهم ثم يتلاومون على ذلك .

روى أن ثلاثة من بلغاء قريش ـ الذين لايعدل بهم في البلاغة أحد ـ وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس، وأبو جهل بن هشام ، اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى به في بيته ، الى أن أصبحوا ، فلما انصرفوا ، جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا انه اذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا الى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به ، فلما كان في الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا ألا يعودوا ، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة الى الأخنس بن قيس فقال : ماتقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب فينا الحجابة قلنا نعم ، يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي والله لا آمنت به أبدا .

فما صدهم عن الايمان الا عصبية الجاهلية ، انفة من استماع الحق والخضوع له ، وقد حكى القرآن كلامهم

فقال : (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) .

لكنهم لم يغلبوا القرآن ، فهو نور الله وكلامه المبين : (والله غالب على أمـره ولـكن أكثر النـاس لا يعلمون) (يوسف ٢١) .

٢ ـ وجوه الاعجاز

تنوعت وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ، فهو معجز كله من ناحية مبناه ومعناه ، ومن الأسرار الدقيقة فى القرآن تأثيره فى القلوب وسلطانه على النفوس وسحره العقول لما له من طلاوة وحلاوة تخلص الى الألباب فى روعة ومهابة ، قال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) . (الزمر : ٢٣) .

وانما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظام وتأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ودعاء الى طاعته ، وبيان لطريق عبادته ،

من تحليل وتحريم وحظر واباحة ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وارشاد الى محاسن أخلاق وزجر عن مساوئها ، متضمنا أخبار القرون الماضية منبئا عن العصور الآتيـة جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليـل والمدلول عليه . ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشـتاتها حتى تنتظم وتنسق مما يعجـز عنه قوى البشر ولاتبلغه قدرتهم . فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شـكله ، ثم صـار المعاندون له يقولون مرة انه شعر لما رأوه منظوما ، ومرة أنه سحر لما رأوا أثره فى القلوب ، ولم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعا من الاعتراف ، ولذلك قالوا ان له لحـلاوة وان عليه لطـلاوة .

ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام انه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار ، ولا تمل منـه الاعادة ، وكلما نظرت فيه رأيته غضا طريا وجديدا مونقا . وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا ، وهذا لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر بما يرى من اعجاز

النظم وبلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وايجازا وابتداء وردا وافرادا وتكريرا .

ومن خصائص القرآن انه جمع بين صفتى الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لايجتمعان غالبا فى كلام البشر .

حقا ان القرآن آية الله الباقية وحجته البالغة وهو النور الساطع والتراث الخالد : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (الحجر : ٩) .

اراؤهم فى الاعجاز :

تنوعت آراء العلماء حول بيان اعجاز القرآن فأرجعوا اعجازه الى نواح متعددة فى معناه ومبناه .

قال الفخر الرازى : وجه الاعجاز الفصاحه وغرابة الاسلوب والسلامة من جميع العيوب .

وقال ابن عطية : الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه اعجازه انه بنظمه وصحة معانيه وتوالى

فصاحة ألفاظه وذلك أن الله أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله فاذا أنزل لفظا من القـرآن علم باحاطتـه أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحـدا من البشر لا يحيط بذلك ، فلهذا جاء نظم القـرآن فى الغاية القصـوى من الفصاحة . وبهذا يبطـل قول من قال ان العـرب كان فى قدرتهم الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحـد قط ، لهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا .. وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ، ونحن نتبين البراعة فى أكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سـلامة الذوق وجودة القريحـة . وقد قامت الحجة على العالم بالعرب ، اذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة .

وقال بعضهـم : وجه الاعجاز فى القـرآن استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها استمرارا لا يوجد

له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لاتستمر الفصاحة والبلاغة فيه الا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الانسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه .

الاعجاز عند الرافعى :

تناول الرافعى اعجاز القرآن فى أقصر سورة منه فقال : « ان لهذه القصار لأمرا وان لها فى القرآن لحكمة هى من أعجب ما ينتهى اليه التأمل حتى لايقع من النفس الا موقع الادلة الالهية المعجزة .

فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول فيسره للحفظ بأسباب كثيرة اظهرها فى المنفعة ، وأولها فى المنزلة هذه السور القصار التى تخرج من الكلمات المعدودة الى الآيات القليلة ، وهى مع ذلك أكثر ما تجىء آياتها على فاصلة واحدة ، أو فواصل قليلة ، مع قصر ما بين الفاصلة والفاصلة ، فكل آية فى

وضعها كأنها سـورة من كلمات قليلة ، لايضيق بها نفس الطفل الصغير وهي تتماسك في ذاكرته بهذه الفواصل التي تأتي على حرف واحد أو حرفين أو حروف قليله متقاربة فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور حتى يلتئم نظم القرآن على لسـانه ويثبت أثره في نفسه فلا يكون بعد الا أن يمر فيه مرا وهو كلما تقدم وجده أسـهل ووجد له خصـائص تعينه على الحفظ وعلى اثبـات ما يحفظ ، فهذا من معـاني قوله تعالى : (وتنزل من القـرآن ما هو شـفاء ورحمـة للمؤمنين) (الاسراء : ٨٢) ، وهي لعمـر الله رحمـة وأي رحمة .

واذا علمنا أن ترتيب القرآن توفيقي أدركنا فضل الله في تيسير حفظ كتابه على الناس حيث جعل هذه السـور آخر القرآن كتابة وهي أول ما يحفظ الصبي من القرآن ، وكلما تمرن على الحفظ اتسعت السـور واتسـع معها ذهن الصبي واستعداده .

واذا أردت أن تبلغ عجبا من ذلك فتأمل آخر سورة من القرآن ، وهي أول ما يحفظه الأطفال ، تلك سـورة

(قل أعوذ برب الناس) ، وانظر كيف جاءت في نظمها ، وكيف تكررت الفاصلة ، وهى لفظة « الناس » ، وفيها السين أشد الحروف صفيراً وأطربها موقعا من سمع الطفل الصغير وابعثها لنشاطه واجتماعه ، وكيف تناسب مقاطع السورة عند النطق بها تردد النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام حتى كأنها تجرى معه وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها (١) ٠

ويضاف الى ذلك حكمة أخرى وهى تيسير أداء الصلاة على العامة ، فانهم لولا هذه السور لتركوا الصلاة جميعا اذ لاتصح الصلاة الا بآيات مع الفاتحة وقد أغنتهم القصار ويسرت عليهم فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبرى ٠

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦٢ هامش ٠

وحدة النظم :

من اعجاز القرآن ، اتساق عبارته واحكام نظمه ، واتحاد طريقته فى الابداع والقوة كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين .

« ومرد ذلك الى روح التركيب التى تنعطف عليها جوانب الكلام الالهى ، وتلمح جمال هذا التركيب فى نظم الكلمة وتأليفها ثم فى تأليف هذا النظم ،فمن هنا تعلق بعضه على بعض وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة اعجازه فى التركيب وان كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارة على جملة ما حصل به جهات الخطاب ، كالقصص والحكم والتعليم وضرب الأمثال الى نحو مما يدور عليه »(١).

فأنت مادمت فى القرآن حتى تفرغ منه لاترى غير صورة واحدة من الكمال وان اختلفت أجزاؤها فى جهات

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى .

التركيب ومواضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام كأنها تفضى اليك جملة واحدة •

وقد ذهب العلماء الى أن ألفاظ القرآن متميزة من جنسها بحيث اذا وجدت تركيبا قرآنيا فى نسق الكلام دل على نفسه ، وارشدت محاسنه اليه لما له من صفة الهية : (انه لقول فصل وما هو بالهزل) • (الطارق ١٣ ، ١٤) •

وحدة الفكرة :

ومن وجوه الاعجاز فى القرآن أن معانيه تجرى فى مناسبة الوضع واحكام النظم مجرى ألفاظه ، ولايعدم المفكر وجها صحيحا من القول في ربط كل كلمة بأختها وكل آية بضريبتها وكل سورة بما اليها وهو علم عجيب أكثر منه الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره ، وقد قال ان أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط •

ويقال ان أول من أظهر هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابورى ، وكان غزير المادة فى الشريعة والأدب ، فكان يقول فى تفسيره لم جعلت هذه الآية الى جنب هذه ،

وما الحكمة فى جعل هذه السورة الى جنب هذه السورة ، ثم كان يزرى على علماء بغداد لأنهم لا يعلمون هذه المناسبات .

وللامام برهان الدين بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ تفسير مخطوط بدار الكتب المصرية ، اسمه : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » . وهو تفسير جليل جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير فيه العقول ، واهتم ببيان ارتباط الجمل بعضها ببعض وتناسق الآيات واتساق المعنى وترابطه .

ومن أظهر من كتب فى هذا المعنى من المفسرين فى العصر الحديث الامام الشيخ محمد عبده ، فقد عنى ببيان الوحدة الفكرية للسورة وبيان التناسب بين آياتها وتعلق نظم القرآن بعضه ببعض ، ورأى أن فكرة السورة يجب أن تكون أساسا فى فهم آياتها والموضوع يجب أن يكون أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيه ، ورفض كل تفسير لايحقق وحدة الهدف والتناسق بين أجزاء السورة وتأثر بالامام جيل من أساتذة التفسير فى هذا العصر .

ومن هذا الجيل أستاذي المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، فقد كان يفتح عيوننا أثناء الدراسة على الوحدة المعنوية للسورة ، ويعرض موضوعاتها في سلك واحد كأنها حبات عقد مكتمل ، أحكمته يد السميع العليم القائل في كتابه الكريم : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (هود : ١) .

ومع أن السورة من القرآن كانت تنزل منجمة مقسطة وفي أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة ، وبين أجزائها عناصر معنوية مختلفة ، « ومع هذا سبكتها وأحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تنال شيئا من استقامة النظم في السورة المؤلفة على هذا النهج ؟ » .

أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بله مغمزا لغامز لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم » .

وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون

الأمثال في جودة السبك وأحكام السرد بهـذا القرآن حين ينتقل من فن الى فن •

وأخيرا نرى أن هذه النظرة الى القرآن تجعل السورة وحدة كاملة أو كائنا حيا يمد الحياة بالنور والهدى •

واذا نظرنا الى أطول سـورة في القرآن وهي سورة البقرة وجدنا أنها تشتمل على موضوعين رئيسيين :

الموضـوع الأول : توجيـه الدعوة الى بني اسرائيل وتذكير الله لهم بنعمته ، واغراقه فرعون ، وتذكيرهم بألوان العناد التي عملوها مثـل اعتدائهـم في السبت وموقفهـم من موسى في ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله وزعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس •

الموضوع الثاني : يبدأ من قوله تعالى :(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ••) (البقرة : ١٧٧)•

ويتحدث عن التشريع الاسـلامي الذي ينظم حيـاة المسـلمين في المدينـة مثـل نظام الأسرة والصـيام والحج

والقصاص والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا وكتابة الدين .

وللسورة بداية تمهد لفكرتها وختام يؤكد الفكرة بطريقة مؤثرة تأخذ بالألباب وآخر سورة البقرة بيان موجز للدعوة المحمدية فى قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) (البقرة : ٢٨٥) .

٣ ـ التحدى

نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة ، وتألف من سبع وسبعين ألف كلمة ونيف ، واكتمل القرآن فى هذه المدة على طريقة معجزة ، يستوى أولها نزولا وآخرها ، فى الاطراد والنظم والبلاغة والغرابة ، بحيث لايستطيع انسان أن يعين فيما بين دفتيه موضع تنقيح ، أو يومىء الى جهة مسها تهذيب ، أو يستخرج مايدل على ضعف فى نسقه واطراده ، أو لفظه ومعناه ، ولم يعهد فى تاريخ الأرض كله أن كلام انسان من الناس يستمر على مثل هذه الطريقة بضعة وعشرين عاما ، ولايكون أول ذلك الا بعد أن يبلغ الأربعين ، ثم لاينتقض ولايضعف ، ولاتختلف

طبقاته ولايتفاوت أمــره فى كل هذه المدة ، مع اختــلاف أحوال النفس وأمــور الزمن ، ومع احصاء كلامه وجمعه لفظة لفظة ، والذهاب به حفظــا وتــلاوة ، حتى لايجــد السبيل الى تغيير كلمة واحدة بعد أن تفصل عنه •

ومن أسرار الاعجاز فى هذا الكتاب الكريم ، انه نزل بلسان عربى مبين ، بين عرب فصحاء ، طبعوا على الصراحــة فى الرأى والشــجاعة فى القول ، والانفة من الذل والضيم •

وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، ثم طاولهم فى المعارضــة ، وتنــازل لهم عن التحدى بجميع القرآن الى التحدى بعشر ســور مثله ، ثم الى التحدى بســورة واحدة من مثله ، وهم على رغم المطاولة ، ينتقلون من عجــز الى عجز ، ومن هزيمة الى هزيمة ، وهو فى كل مرة من مــرات هذا التحدى وهذه المطــاولة ، ينتقل من فوز الى فوز ، ويخرج من نصر الى نصر •

تصور انه قال لهم فى ســورة الطور أول ما تحداهم

(أم يقولون تقوله بل لا يؤمنــون * فليأتوا بحــديث مثله ان كانوا صادقين) . (الطور ٣٣ ، ٣٤) .

فلما انقطعوا مد لهم في الحبل وقال في سورة هود :
(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر ســـور مثـله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) . (هود ١٣ ، ١٤) .

فلما عجزوا هذه المرة أيضــا ، طاولهم مرة أخــرى وأرخى لهم الحبل الى آخــره ، وقال في سورة البقرة :
(وان كنتم في ريب مما نزلنــا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) . (البقرة ٢٣ ، ٢٤) .

فكان عجزهم بعد ذلك اشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمــة أبد الدهــر ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم ، وظهــر أمــر الله وهم كارهون .

التحدي عند الجاحظ :

قال الجاحظ : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساءا ، الى أن يعارضوه ان كان كاذبا بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ماكان مستورا ، وظهر منه ماكان خفيا ، فحين لم يجدو حيلة ولا حجة ، قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا قال فهاتوا مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولاطمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من

يستجيده ، ويحامي عليه ويثابر فيه ، ويزعم انه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة ، كانت انقض لقوله وأفسد لأمره ، وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه ، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وانفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير ، الذى لايخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور .

ثم تحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم ، فمحال — أكرمك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البين ، مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا اليه ،

والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة (١) على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه ، وهم يبذلون أكثر منه (٢) .

معارضة القرآن :

حاول قوم أن يعارضوا القرآن ، متوهمين أنه كسجع الكهان فجاءوا بسجع قلق يعارضون به القرآن ــ وشتان ما بين الحق والباطل ــ وقد باءت محاولتهم بالفشل ، وأخزتهم أمام الجماهير ، وكان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق ، وبرهانا ماديا على أن القرآن كلام الله القادر ، وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن .

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب ، زعم أنه أوحي

---

(١) هى مدة رسالته صلى الله عليه وسلم .

(٢) اعجاز القرآن للرافعى ، فصل : التحدى والمعارضة ص ٢٢٥ .

اليه بكلام كالقـرآن ، ثم طلع على النـاس بهـذا الهذر :
« انا أعطيناك الجماهر • فصل لربك وجاهر » •

وبهذا السخف : « والطاحنـات طحنا • والعاجنات عجنـا • والخابزات خبزا » • وأنت خبير بأن مثـل ذلك الاسفاف ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير ، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الانسـان ؟ وأين هذه الكلمات السوقيـة الركيكة ، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية ، وهل المعارضـة الا الاتيان بمثل الأصل فى لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه فى ذلك ؟

يقول الرافعى : ان مسيلمة لم يرد أن يعارض القرآن من ناحية الصناعة البيانية ، وانما أراد أن يتخذ سبيله الى استهواء قومه بهذا السجع القلق ، وما كان مسـيلمة فى قوله السجع حاذقا ، ولا فى دعوى النبوة صادقا ، وانما كان اتباعهم اياه كما قال قائلهم : « كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر » •

روعة القرآن :

تميز القرآن بحلاوته وطلاوته ، وجماله وروعته ، تلك الروعة التى تأخذ بقلوب سامعية عند سماعه ، وتستولى على أفئدة قارئيه عند قراءته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجبير بن مطعم ، وذلك أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، قال فلما بلغ هذه الآية : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) الى قوله : (المصيطرون) (١) كاد قلبى يطير ، قال وذلك أول ما وقر الاسلام فى قلبى .

وقصة اسلام أبى ذر واسلام أخيه كان سببها سماع القرآن ، روى عن أبى ذر أنه قال : قال لى أخى أنيس : ان لى حاجة الى مكة ، فانطلق فراث فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلا يقول ان الله تعالى أرسله فقلت : فما يقول

---

(١) سورة الطور الآيات ٣٥ ـ ٣٧ .

ونصها ما يأتى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون) .

الناس ؟ قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبو ذر وكان أنيس أحد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله انه لصادق وانهم لكاذبون .

ومن ذلك ما روى أن الوليد بن عقبة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ ، فقرأ عليه : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) (النحل : ٩٠) . فقال أعد فأعاد . فقال : والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر .

الكلمات وحروفها :

ومن الروعة الحقة للقرآن ادراكه لخفايا النفس البشرية وتلمس السبيل لبعث عوامل الايمان فى هذه النفس بالرغبة والرهبة والتشويق والاثارة ، وصوغ المعانى فى عبارة خلابة ولفظ رشيق تكسبوه حلاوة الفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تغنى عن

القوافي ، وترى الحرف يسكون رقيقا في موضع الرقة ، شديدا في موضع الشدة ، فترى هذه الألف اللينة ، التي تختم بها آيات في سورة النجم ، تصور جلال التكريم الالهي ، والفضل الرباني على النبي الأمين في قوله تعالى : (والنجم اذا هوى * ماضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى الى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتماورونه على مايرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى) • (النجم ١ ــ ١٥) •

فالموقف موقف تكريم واسعاد والمشهد مشهد النبي الكريم يتخطى الحجب الى فضل هو ذروة المنتهى وجنة المأوى ، فناسب ذلك سهولة الفاصلة وليونة حرف الختام •

واذا عرض القرآن ألوان العذاب أو الوعيد تخير الكلمات الموحية ، والألفاظ المعبرة ، التي تسلك سبيلها الى النفس فتجسم الفكرة وتصور المعنى •

اقرأ قوله تعالى : (ولقد خلقنـــا الانســـــان ونعلم ما توسوس به نفســه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد * اذ يتلقى المتلقيـان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد * وجاءت سـكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد * ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) (ق : ١٦ ــ ٢٠) .

فهذه الدال من حروف القلقلة مسبوقة بالباء المشبعة تحدد صوت الانذار ، وتوائم أسـلوب الوعيد ، وتلمس ذلك فى قوله تعالى : (تكاد تميز من الغيظ) (الملك ٨) . فلفظ تميز يوحى بالقلق والغضب حتى كأن جهنـم سـبع مفترس يتحرق شوقا لالتهام فريسته .

واذا قرأت قوله تعالى : (فكبكبوا فيها هم والغاوون) (الشـعراء : ٩٤) ، استشعرت مـن لفظ الكبكبة عنف العذاب الذى يصيب المجـرمين حتى انهم يدفعون دفعـــا ويدعون دعا ، فيتهاوون جماعة فوق أخرى .

الحروف وأصواتها :

« الحرف الواحد من القرآن الكريم معجز فى موضعه لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة وهذا هو السر فى اعجاز جملته اعجازا أبديا فهذا أمر فوق الطبيعة الانسانية وفوق ما يتسبب اليه الانسان اذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة وما انزله الا الذى يعلم السر فى السموات والأرض » .

وربما حذف القرآن حرفا فى سياق معين وأثبت الحرف نفسه فى سياق مشابه ليشير الى معان جمة تلحظها النفس بين السطور وتراها فى ثنايا التعبير .

فى الآيات الأخيرة من سورة الزمر ، يقول القرآن الكريم : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها) (الزمر : ٧١) فأشارت الآية الى مشهد من مشاهد الاذلال لهؤلاء الكفار ، فهم وقوف لايفتح الباب لهم الا بعد احضارهم .

وقال سبحانه بعد ذلك : (وسيق الذين اتقوا ربهم

الى الجنــة زمــرا حتى اذا جـاءوها وفتحت أبوابهـــا) (الزمر : ٧٣) • فأشارت الآية الى أن التكريم قد سبقهم بتفتيح أبواب الجنة وانتظار قدومهم •

لقد تحدث القرآن عن النار فقال : « فتحت » •

وتحدث عن الجنة فقال « وفتحت » •

فأظهـر الاذلال الذى ينـال الكافرين بالانتظار على الأبواب ، والاكرام الذى ينال المؤمنين بالاعداد والاستقبال الذى يسبق قدومهم احتفاء بهم •

ولما كان الأصـل فى نظم القـرآن ان تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها ، من الدلالة المعنوية ، استحال أن يقع فى تركيبه ما يسوغ الحكم فى كلمة زائدة ، أو حرف مضطرب ، أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض •

ونجد القرآن اذا تحدث بلسان النملة كانت كلماتها كأنها تحكى صوت النملة ، واذا تكلم بلسان الهدهد كان جرس الكلمات وموسيقاها يحكى صوت الهدهد •

فقد قال القرآن على لســـان الهدهد : (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) (النمل ٢٢) وهى على وزن صوت الهدهد : كوكو ، كوكو ، كوكوك .

فالصوت فى القرآن يؤدى غرضه كاملا غير منقوص . ان الابداع الصوتى فى القرآن وانتقاء الكلمـات بجرسـها ونغمها له أكبر الأثر فى هدايته البالغة ، ونظمه العجيب ، واعجـازه الرائع ، وتأثيره فى قلوب سـامعيه من العرب والعجم .

وما من أعجمى يسمع ترتيل القرآن فهمه أو لم يفهمه الا اعترته رقة للشـجى والنظم ، وأحس أن هـذه الآيات تموج فى نفسـه وتجيش نفسـه بها مع أنه لايعتريه من ذلك شىء اذا هو سـمع الألحان العربيـة فى الغناء والشعر وقد لا يجد فى الموسيقى ضرباً أسخف منها لمكان اختلاف الأذواق ، وما نجد ملحدا لايؤمن بالله الا وهو مؤمن بهذا الاعجاز فى كتابه ، حين يسمعه مرتلا من صـوت جميل كأن النبوة حينئذ تلامسه .

٤ ـ بلاغة القرآن

الحد الصحيح للبلاغة فى الكلام هو ان يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع باصابة موضع الاقنـاع من العقل ، والوجـدان من النفس ، ولم يعرف فى تاريـخ البشر ان كلاما قارب القـرآن فى قوة تأثيره فى العقول والقلوب ، فهو الذى قلب طباع الأمة العربية ، وحولها عن عقائدها وتقاليدها ، وصرفهـا عن عاداتهـا وعداوتها ، وصدف بها عن اثرتهـا وثاراتهـا ، وبدلهـا بأميتهـا حكمة وعلمـا ، وبجاهليتها أدبا رائعـا وحلما . وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحـدة سـادت العالم بعقائدها وفضـائلها ، وعدلهـا وحضارتها وعلومها وفنونها .

ولم تكن هذه البلاغة خفية على أهل مكة ، فهم خبراء الفصاحة وفرسان البيان ، وكان بعضهم يسجد عند سماع القرآن ويقول سجدت لبلاغة هذا الكلام •

ولكن غلبت عليهم العصبية ، وأعمتهم حمية الجاهلية، عن اتباع الحق رغم وضوحه ، وعن السير فى ركب الايمان رغم اعترافهم بصدقه •

ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن أبى الصلت وغيرهم ممن أدركوا عظمة القرآن ثم أعرضوا عن الايمان •

روى الحاكم وصححه البيهقى فى الدلائل أن الوليد ابن المغيرة أتى قريشا فقال : ان الناس يجتمعون غدا بالموسم وقد فشا أمر هذا الرجل فى الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم : فقالوا : مجنون يخنق ، فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحا فصيحا عادلا فيكذبونكم • قالوا : نقول هو شاعر ، قال : هم العرب وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم • قالوا : نقول

هو كاهن ، قال : انهم لقوا الكهان فاذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم • ثم انصرف الوليد الى منزله فقالوا : صبا الوليد ـ يعنون اسلم ـ ولئن صبا لا يبقى أحد الا صبا • فقال لهم ابن اخيه ابو جهل بن هشام ابن المغيرة : انا اكفيكموه ، قال فأتاه محزونا فقال : مالك يا ابن أخ ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقه يتصدقون بها عليك ، تستعين بها على كبرك وحاجتك ، قال : أو لست أكثر قريش مالا ؟ قال : بلى ، ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه • قال : ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول ؟

ثم أتى قريشا فقال : اتزعمونى أنى صبأت ولعمرى ما صبأت ، انكم قلتم : محمد مجنون ، وقد ولد بين اظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوما ، فهل رأيتمونه يخنق قط • فيكف يكون مجنونا ولم يخنق قط ؟

وقلتم شاعر ، وأنتم شعراء فهل أحد منكم يقول ما يقول ؟

وقلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد فى شىء يـكون فى غـد الا أن يقول ان شـاء الله ؟ قالوا : فكيف تقـول يا أبا المغيرة ؟

قال : أقول هو ساحر ، فقالوا : وأى شىء السحر . قال : شىء يكون ببابل ، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأخيه ، ألا ترون أن محمدا فرق بين فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأخيـه ، وبين فلان ومواليه ، فلا ينفعهـم ولا يلتفت اليهـم ولا يأتيهـم ؟ قالوا : بلى ، فاجتمع رأيهم على أن يقولوا : انه ساحر ، وان يردوا الناس عنه بهذا القول .

وانصرف ، فمر بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم منطلقا الى رحله ، وهم جلوس فى المسجد فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة الى خير ؟ فرجع اليهـم فقـال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم الا سحرا وما هو الا قول البشر يرويه عن غيره وعبس فى وجوههم وبسر ثم أدبر الى أهله مكذبا ، واستكبر عن حديثهم الذى قالوا له

وعن الايمان ، فأنزل الله تعالى فيه : (انه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال ان هذا إلا سحر يؤثر * ان هذا الا قول البشر) (المدثر : ١٨ ــ ٢٥) (١) .

حسن البيان :

حسن البيان هو اخراج المعنى فى أحسن الصور الموضحة له ، وايصاله الى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها ، فانه عين البلاغة . وقد تأتى العبارة عنه عن طريق الايجاز ، وقد تأتى عن طريق الاطناب بحسب ما يقتضيه الحال . والاطناب بلاغة ، والاسهاب عى .. وقد أتى بيان الكتاب العزيز من الطريقين ، ومن ذلك قوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين) (الدخان ٢٥ ــ ٢٧) . وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن الوعد : (ان المتقين فى مقام أمين *

---

(١) انظر ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ١٢٣ ط٢ دار المعارف .

فى جنات وعيون * يلبسون من سندس واستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) (الدخان ٥١ ــ ٥٥) . وكقوله عز وجل ــ وقد أراد ان يبين الوعيد : (ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) الدخان ٤٠ ــ وكقوله فى الاحتجاج القاطع للخصم (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (يس ٧٨ ، ٧٩) وكقوله تبارك وتعالى ــ وقد أراد أن يبين حسرة الكفار ــ : (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) (الزخرف ٣٩) ، وكقوله تعالى وقد أراد أن يبين عن العدول ــ : (ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وانهم لكاذبون) (الأنعام ٢٨) وأمثال هذه المواضع كثيرة (١) .

فن القول :

تناولت كتب البلاغة العربية ألوان البيان فى القرآن الكريم وتعرضت كتب علوم القرآن لفنون القول فى

---

(١) انظر ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط٢ دار المعارف بمصر : ص ١٩٤ .

القرآن الكريم ومن أشهر هذه الكتب البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى والاتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى • وهما مطبوعان فى القاهرة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم •

وقد تعرض الكتابان الى عدد من المباحث القرآنية البلاغية ، مثل تشبيه القرآن واستعاراته ، وكنايته وتعريضه وحقيقته ومجازه وحصره واختصاصه ، وايجازه واطنابه ، وخبره وانشائه وجدله وأمثاله وأقسامه ••• وسنذكر نماذج من هذه الفنون فى القرآن الكريم •

التشبيه والاستعادة :

من تشبيه القرآن قوله سبحانه : (كمثل الحمار يحمل أسفارا) ووجه الشبه حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى استصحابه •

وقوله سبحانه : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا)

(الكهف ٤٥) ووجه الشبه هنا هيئة منتزعه من متعدد (١) فقد شبه الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب ثم اخضر النبات ونما وترعرع ولم يلبث أن تحول الى حطب جاف تذروه الرياح . وقريب منه قوله سبحانه في وصف الدنيا (كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) (الحديد ٢٠) ، ومن استعارات القرآن قوله تعالى (والصبح اذا تنفس) (التكوير ١٨) ، فالحياة تخلع في هذه الآية على الصبح حتى لقد صار كائنا حيا يتنفس بل انسانا ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة باشراقة من ثغره ، المنفرج عن ابتسامة وديعة وهو يتنفس بهدوء ، ومن استعارات القرآن أيضا قوله سبحانه في وصف جهنم (اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ) (الملك ٧ ، ٨) . فقد استعيرت لجهنم شخصية

---

(١) ينقسم التشبيه باعتبار وجهه الى مفرد ومركب . والمركب هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من أمور متعدده .

آدمية ، لها انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية ، فهى تشهق شهيق الباكين ، وهى تغضب وتثور وهى ذات نفس الشعور ، ومن استعارة المحسوس للمعقول قول القـرآن (بل نقذف بالحق على الباطـل فيدمغه فاذا هو زاهق) فقد صور الحق بالقذيفة الثقيلة التى تدمغ الباطل وتزهقه .

ومن الاستعارات البليغة قوله سـبحانه : (فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) (الكهف ٧٧) وقول الله تعـالى : (واعتصـــموا بحبـل الله جميعـا ولا تفرقوا) (آل عمران ١٠٣) .

٥ ـ العلم فى القرآن :

دعا القــرآن الى العــلم فى أول آيات تنزلت منـــه ، واقسم الله بالقلم وهو أول أداة فى ســبيل تحصــيل العلم فقال تعالى : (ن ، والقلم وما يسطرون) (القلم ١) •

كما أشاد القرآن بمكانة العلم والعلماء فقال سبحانه : (بل هو آيات بينات فى صــــدور الذين أوتوا العــلم) (العنكبوت : ٤٩) •

(شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم) (آل عمران : ١٨) •

وقد خاطب القرآن الكريم ذوى العقول الراجحة ، ووجه الحديث الى أهل الخبرة والمعرفة فقال سبحانه :

﴿ ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ (آل عمران : ١٩٠) .

وقال عز شأنه : ﴿ ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين (وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ (الجاثية : ٣ ـ ٥) .

وهكذا يفصل كتاب الله فى مراحل الوحى المختلفة المقصود بالعلم ، وما انقسم اليه فى عصرنا هذا من فروع وتخصصات ، مثل الفلك والفيزياء ، والكيمياء ، والأرصاد ، والنبات ، والحيوان ، وطبقات الأرض ، ونحوها .. تلك العلوم الأساسية التى بازدهارها تزداد الشعوب درجات فى البأس والقوة ، ودرجات فى الايمان والتقرب من الله ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور ﴾ (فاطر : ٢٨) .

لقد تعرض القرآن في آيات كثيرة منه ــ نحو سبعمائة وخمسين اية ــ الى مسائل هى من صميم العلم • وذكر جانبا من الحقائق العلمية كقضايا عامة ، ودخل في تفاصيل بعض الحقائق الأخرى وبذلك نبه الأذهان الى أهمية البحث واعمال النظر والفكر وبتلك الدفعة الكبرى الف العرب الموسوعات الشاملة فى مختلف فروع العلم والمعرفة فكتب ابن سينا نحو ٢٦٦ كتابا فى علوم الطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة والفيزياء والنبات والحيوان الخ • وألف ابن الهيثم نحو ٢٠٠ كتاب منها كتابه البصريات الذى لقى رواجا بعد تحقيقه فى عصرنا هذا ، وصنف البيرونى نحو ١٧٦ مخطوطا على مستوى رفيع ، منها ما عالج فيه العديد من المسائل الرياضية والفلكية الحديثة • وألف الجاحظ مايربو على ٣٥٠ كتابا ورسالة فى الأدب والشعر مما تفخر به المكتبة العربية •

وفى مجال الرياضيات والحساب وضع العرب أساس الكسر العشرى واستخدموا الصفر على يد جمشيد ، وتعتبر هذه الأعمال أهم خطوة تمت فى سبيل ارتقاء العلوم

الرياضية ، والعجيب ان القرآن الكريم يأخذ بالحساب العشرى ، وذلك فى العديد من الآيات التى يستخدم فيها العدد مثل قوله تعالى :

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (الأنعام ١٦٠) •

(ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (الأنفال : ٦٥) •

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) (هود : ١٣) •

(وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) (الحج : ٤٧) •

(ليلة القدر خير من ألف شهر) (القدر : ٣) •

عجز الزمان عن ابطال شىء من القرآن

اذا تأملت كلمات القرآن ، واجلت بصرك بين سطوره ، وجدت انه يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى ، فى جميع أنواع المخلوقات ، من الجماد والنبات

والحيوان والانسان ، ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ونجومها ، والأرض والهواء والسحاب والماء ، من بحار وانهار وعيون وينابيع ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطريق التشريع السوى الأمثل . وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ثم عجزت هذه القرون التى ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، ان تنقض بناء آية من آياته أو تبطل حكما من أحكامه أو تكذب خبرا من أخباره . وهى التى جعلت فلسفة اليونان دكا ، ونسخت شرائع الأمم نسخا ، وتركت سائر علوم الأوائل قاعا صفصفا ، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية ، ورجعت فى تحقيقها الى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية ، وحكمت فيها أصول العمران وسنن الاجتماع ، بحيث لم يتبق لعلماء الأوائل كتاب غير منقوض :

وظلت أخبار القرآن وتشريعاته وعلومه وفنونه خالدة باقية ، وذلك سر من أسرار الاعجاز فى القرآن فان الله قد تكفل بحفظه وخلوده ، فقال سبحانه : (انا نحن نزلنا الذكر وانا لحافظون) (الحجر : ٩) .

٥ ـ القرآن والعلم الحديث

من اعجاز القرآن الكريم اشارته الى نشأة علوم حديثه لم يعرفها السابقون ، وانما لفت أنظارهم اليها ، كما وجه أبصـارهم الى دراســة الكون وتأمل ظواهره والاحاطة بآيات الله فيه ، وقد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمي وأرشدت اليه وفكت مغاليقه وتركت للعقل البشرى بعد ذلك استكمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته أو خطئها .

قال تعالى : (سنريهم آياتنـا فى الآفاق وفى أنفســهم حتى يتبين لهـم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (فصلت : ٥٣) .

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير الى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطا في موضعه ، من ذلك ان الصعود الى أعلا يلزمه حتما ضيق الصدر ، أى الاختناق بسبب نقص الأكسجين ، وهذا يفسر لنا قوله تعالى : (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) (الأنعام : ١٢٥) .

ومن الثابت أن للأرض جاذبية ، وللأفلاك الأخرى كالشمس والقمر جاذبية ويحتاج الانسان الى سرعة جبارة ليندفع فى الفضاء متخلصا من جاذبية الأفلاك ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : (يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان) (الرحمن : ٣٣) . وما هذا السلطان الا سلطان العلم وهو أقوى ما حصل عليه الانسان وأعظم ما منح ، وبه ملك زمان الأرض والسماء .

ويقول الله تعالى فى (سورة الفرقان : ٦١) : (تبارك

الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) ٠

والبروج مجموعات النجوم المعروفة بالدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والأسد والسرطان والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدى ٠

أما السراج فهى الشمس المضيئة ، والاعجاز هنا اشارة القرآن الى أن وظيفة القمر هى مجرد التنوير برد ضوء الشمس الساقط عليه ، أما الشمس فهى مصدر الطاقات التى ترسلها عبر الفضاء الكونى كما يرسل السراج المتقد الضوء والحرارة ٠

قال تعالى فى (سورة نوح : ١٦) (وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) ٠

وفى (سورة النبأ : ١٣) (وجعلنا سراجا وهاجا) ٠

وقطر الشمس أكبر من قطر الأرض مائة مرة وتبلغ درجة حرارة سطحها من ٦٠٠٠ درجة مطلقة الى ١٠ مليون درجة ٠

وتمدنا الشمس بكافة أنواع الطاقات التى تشرق بها الأرض ، وتزدهر الحياة فى كنفها . ويشير القرآن الى تغير تلك الطاقات بتغير الشهور والمواسم حتى يعم النفع ولا يمل الناس من حر دائم أو برد مستمر .

يقول سبحانه (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) (الفرقان : ٤٥) .

كما يشير القرآن الى بعض الظواهر الفلكية فى تحديد مسار الشمس فهى تجرى ومعها سائر أجرام مجموعتها بسرعة تبلغ عدة مئات الأميال فى الثانية .

ورغم سير الشمس المستمر ، فانها لا تتخلف عن وظيفتها ، ولاتظهر فى غير أوانها ، كما أن للقمر مداره ومنزلته وفلكه الذى يسبح فيه ، وقد قدر الله كل ذلك بنظام بديع وتقدير محكم لايختل ولا يضطرب ، وفى اعجاز رائع وأسلوب حكيم ينطق القرآن بهذه الظاهرة ، فيقول سبحانه : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير

العزيز العليم * والقمر قدرناه منــازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لهــا أن تدرك القمــر ولا الليل سابق النها وكل فى فلك يسبحون) (يس : ٣٨ – ٤٠) .

القرآن وعلوم الفضاء :

أشار القرآن الى أســفار الفضــاء ، وذكر أن أجرام السماء تظل تسبح على الدوام الى ماشاء الله ، حيث لايوجد فى الفضــاء الكونى ما يعوق حركتها ، أو يغير من سرعتها مصـــداقا لقوله تعالى : (وهو الذى خلق الليــل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) (الأنبياء : ٣٣) .

ومن العجيب أن يذكر القرآن أسفار الفضاء كلها على أنها تتم فى مســارات منحنية ، والحقيقة أن الفضــاء لايعرف الخط المستقيم ، انظر الى قوله تعالى فى (سورة المعارج : ٤): (تعرج الملائكة والروح اليه) .

وفى (ســورة سبأ : ٢) : (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من الســماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) .

وفى (سورة الحجر : ١٤) : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) .

وحين انفتح أمام الانسان باب الوصول الى القمر ورحل اليه مرة بعد أخرى رأى نفسه ينطلق فى مسارات منحنية أو متعرجة ، ولا يسير فى خطوط مستقيمة ، وعندما صعد رواد الفضاء فوق جو الأرض ، نظروا الى الأرض فرأوها قبة زرقاء معلقة فى الفضاء ، وأصبح فى مقدورهم تمييز الخط الفاصل بين الليل والنهار فى غلاف الأرض ، ورأوا أن هذا الخط يلف مع دوران الأرض حول محورها، ولقد أشار القرآن الى هذه الحقائق بأسلوبه المعجز وبيانه الحكيم . قال تعالى فى (سورة الزمر : ٥) : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) .

وفى (سورة النور : ٤٤) : (يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

وقد أشار القرآن الى أهمية الجبال فى حفظ توازن

الأرض ، وذلك فى قوله تعالى : (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) (النحل : ١٥) .

وقوله سبحانه : (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) (النبأ : ٦ - ٧) .

وثبت علميا ان قشرة الأرض ميزان حساس فكل مكان فيه هو كفة متوازنة مع كل مكان آخر ، فاذا تغير الثقل على مكان ما اضطرب هذا التوازن ونجمت عن ذلك هزات الزلازل ، وتصدعات القشرة اليابسة لاعادة هذا التوازن ، والجبال بمقتضى عوامل التعرية تزول ببطء شديد ، ولعل هذا ما تشير اليه الآية الكريمة : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون) (النمل : ٨٨) .

ومن الاعجاز العلمى للقرآن ما كشف عنه العلم من تلاقح النبات وأنه أزواج : قال تعالى : (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) (يس : ٣٦) .

وقال سبحانه : (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) (طه : ٥٣) •

(ومن كل الثمــرات جعـل فيهـا زوجـين اثنين) (الرعد ٣) •

وقال عز شأنه : (وأرسـلنا الرياح لواقح فأنزلنـا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) (الحجر : ٢٢) •

وقد ظن فريق من العلماء أن الآية تشـير الى تلقيح الرياح لبعض النباتات كما هو معروف • ولكن هذا المعنى لايربط الجزء الأول من الآية بجزئهـا الثانى وهو انزال الماء العذب •

فالآية تشير الى ما تسببه الرياح من تسخير السحاب وانزال المطر ، واثراء الحياة بالخيرات والنبـات والمرعى مما يستحق التفكير والتأمل • قال تعالى : (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (البقرة : ١٦٤) •

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم فى تعبير بلغ ذروة الاعجاز فى وصف أبعاد النجوم واتساع الكون المادى بصفة عامة ، قال تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم * وانه لقسم لو تعلمون عظيم) . (الواقعة : ٧٥ ، ٧٦) .

ومن آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن لله عز وجل كتابين ، كتاب مفتوح وهو الكون يقرؤه العالم والجاهل والكبير والصير والمتعلم والأمى ، وكتاب مقروء أنزله على نبيه ليرشد الناس الى آثار قدرة الله بديع السموات والأرض .

ورغم أن المقصود الاسمى من هذا الكتاب هو الهداية والارشاد الا أنه مع ذلك حوى أصول الاعجاز التشريعى والنفسى والبيانى والعلمى .

وان من أدلة اعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطىء الناس فى تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه ، فكلما

تقدمت العلوم ونازعت الى الكشف والاختراع واستكملت آلات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية ، ناصعة حتى كأن القرآن غاية لايزال عقل الانسان يتطلع اليها .

ولاعجب في ذلك ، فالعقل أثر من آثار الله ، والوحي أثر من آثار الله وآثار الله لا تناقض بينهما ولا اضطراب .

قال تعالى : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) (الملك : ٣) .

(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون) (يوسف : ٢١) .

٦ – عناصر الجمال الفنى فى القرآن

من نواحى الاعجاز فى القــرآن الكريم انه يعــرض أمامك الصورة البارعة التى تأخــذ بالألباب وتســتولى على الأفئدة فتتحول الى مشهد رائع أو لوحة خالدة .

وقد نزل القــرآن على العرب والامية فيهم منتشرة فعرض عليهم كتــاب الكون بكل مافيــه ، وقدم لهم لوحات خالدة وصورا مثيرة تستلفت نظر الأعمى والبصير والأمى والمتعلم ، والمرأة والرجل ، والشيخ والشاب ، فهو كتاب العامة والخاصة على السواء .

وقد كان القــرآن المكى يستلفت أنظــار النــاس الى

جمال هذا الكون وبديع صنعته ، ويسترسل فى سوق الادلة المتتالية حتى يأخذ على النفس كل طريق فلا تجد سبيلا من الاذعان والايمان عن قناعة حقة بأن هذا الكون لم يخلق عبثا ولن يترك سدى .

وفى أول آيات القرآن التى نزلت على النبى بمكة وهو فى غار حراء يتلو الوحى :(اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم) .

آيات قصيرة موجزة ، وأسلوب بسيط أخاذ ، وحقائق عن الكون وخالقه ، والقراءة والعلم .

فالقراءة باسم الله الذى خلق كل شىء ، خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار والهواء والفضاء ، وسخر الشمس والقمر وابدع الكون كله فى نسق رائع وجمال خالد .

وكما يعرض القرآن الكون الفسيح أمام الانسان

فانه يستعرض النفس البشرية بكل أسرارها وابداع خلقها ودقة تركيبها .

حتى يفكر الانسان فى أصله ، كيف خلق ؟ كيف تم تكوينه ؟ حتى أصبح خلقا بديعا جميلا فيقول سبحانه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق* خلق الانسان من علق) .

ويقول الله فى آية أخرى : (فلينظر الانسان مم خلق* خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب) (الطارق : ٥ ـ ٧) .

وهذا الحديث عن البدء والمعاد يعرضه القرآن فى هدوء ويسر بدون اغراب أو ابتذال ، حتى يوشك أن يكون كلام النفس ذاتها ، فهو السهل الممتنع وهو النسق العالى والأدب الرفيع الذى يمتع العقل والفكر ويرضى العاطفة والذوق سواء بسواء .

وفى الحديث الصحيح أن عمر رضى الله عنه لما سمع قول الله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة

فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر) (المؤمنون : ١٢ ــ ١٤) .

قال عمر متعجبا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وتبسم النبى صلى الله عليه وسلم لنطق عمر ، فلما سأله عمر عن سر تبسمه قال : ان الله ختم الآية بما نطقت به .

وقد فرح عمر بذلك وقال : وافقت ربى ووافقنى ربى .

وليس ذلك بعجيب على عمر فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه وقال فيه النبى : انه كان فيمن مضى ملهمون ، ولو كان فى امتى ملهمون لكان عمر .

واذا تأملت آيات القرآن ، رأيتها تعرض تطور الجنين وتكوينه فى صورة مشرقة تنبض بالحياة والحركة ، فاذا المعنى الذهنى حركة ومشهد ، واذا النموذج الانسانى شاخص حى ، واذا اللفظ القرآنى يعرض الحياة بكل أطوارها .

فاذا ذكرنا أن الأداة التى تصور هذه الحياة انما هى ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر ، أدركنا موضع الاعجاز فى تعبير القرآن الكريم .

الاعجاز فى نغم القرآن :

لأسلوب القرآن حلاوة تأخذ بالأخذ بالألباب ، وتستهوى الأفئدة فلا تلبث آياته أن تأخذ سبيلها الى القلوب فى ايقاع ندى وجرس جميل ونغم رائع ، ولقد سمع القرآن أحد الكفار فرجع الى قومه قائلا : « لقد سمعت من محمد آنفا قولا ماهو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وان اعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وان فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر » .

وتستطيع أن تتبين هذا الاعجاز فى جميع آيات القرآن وكلماته ، فكل كلمة قد وضعت فى مكانها ، وكل حرف قد صادف موقعه ، اقرأ مثلا سورة الرحمن ، واسترسل فى قراءتها على سجيتك ، وامعن نظرك فى جمال عرضها وتناسق أفكارها وتسلسل معانيها ، ثم ارجع البصر

كرتين •• كيف بدئت ؟ وكيف ختمت •• وكيف تقابلت أوضاعهـا وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانهـا وتعانقت •• وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأ أولاها لأخراها ••

ثم تأمل النغم الذى يسرى فى جميع آياتها :

(الرحمن * علم القرآن * خلق الانســـان * علمه البيان) (الرحمن ١ ـ ٤) •

فقرات قصار ، وصوت ندى ، ونشيد الهى ، ومعان ربانية تأخـذ سـبيلها الى القلوب ، فى أسـلوب ايقاعى ، تبهرك موسيقاه وتستولى على الوجدان أنغامه والحانه ، فهو السحر الحلال الذى جمع بين مزايا النثر والشعر كلاهما ، فلا تجد فى السورة قيود القافيـة الموحدة ، أو التفعيلات التامة ، بل تجد حرية التعبير الكاملة ، وجمال التصوير الرائع الذى يعرض مظاهر الكون ، وحقـائق الوجـود ويسوق القيامة وأهوالها ، والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها فى مشـهد حى متحـرك ، فاذا الغائب حاضر واذا النفس سـائرة مع الآيات تتأمل نعم الرحمن فى خلق الانســان

وتسخير الشمس والقمر بحسبان ، ووضع الميزان ، وبعد كل نعمة من نعم الله يعقب الرحمن بهذه الآية الكريمة : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

فلا يملك الانسان الا أن يسجد عقله وأن يزداد يقينه وأن ينطلق قلبه ولسانه قائلا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب .

وقد تميز القرآن على الشعر والنثر والسجع ، فتحلى بمزاياها وتخلص من قيودها . قال تعالى :

(فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * انه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) (الحاقة : ٣٨ ـ ٤٣) .

وتصور هذه الآيات موقف العرب من القرآن وذلك انهم أخذوا بحسن بيانه وجدة معانيه ، وروعة قوافيه فأخذوا يكيلون التهم جزافا للنبى فقالوا شاعر ثم قالوا ساحر ، وانبرى أحد الكفار يدافع عن القرآن أمام قومه ، فقال لهم : لقد عرفنا الشعر فما هو برجزه ولا رمله ،

وعرفنا الكهانة فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه وعرفنا السحر فما هو ينفثه ولا عقده •

وتعرض الآية الخامسة من سورة الأنبياء مشهدا من مشاهد الكافرين وقد أخذوا يتدافعون فى الصاق التهم بالقرآن في غير تبصر ولا روية • قال تعالى :

(بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) •

فكأنك تشهد أمامك منظر هؤلاء الناس ، وقد اجتمعوا فى مجلس ، أحدهم يقول : ان القرآن أضغاث أحلام لايعلم صحيحها من سقيمها ولاحقها من باطلها • فيجيب الثانى كلا بل افتراه محمد من عند نفسه • فيرد الثالث بل هو شعر تنزلت به الشياطين ، فهى صورة متحركة لجمع مضطرب يهذى كالمحموم يحاول أن يلصق بخصمه أى تهمة تجرى على لسانه •

وقد أفحمهم القرآن والزمهم الحجة وتحداهم بالوعيد الصادق الى يوم الدين فقال سبحانه :

(وما تنزلت به الشـــــياطين * وما ينبغى لهـــم وما يستطيعون) (الشعراء : ٢١٠ – ٢١١) ٠

وقال سبحانه :

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) (هود : ١٣) ٠

وقال عـــز شـــأنه :

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثـل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهـم لبعض ظهيرا) (الاسراء : ٨٨) ٠

٧ ـ تصوير الحالات النفسية والمعنوية :

من ابداع القرآن أنه يرسم الحالات النفسية كأنها نموذج انسانى واضح للعيان .

١ ـ فاذا أراد أن يبين أن الانسان لايعرف ربه الا فى ساعة الضيق حتى اذا جاءه الفرج نسى ربه ، لم يقل ذلك فى كلمات وانما فى صورة مشاهدة ملموسة ، قال سبحانه : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعو الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من

هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم اذاهم يبغون في الأرض بغير الحق) (يونس ٢٢ ، ٢٣) .

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك ، وتموج وتضطرب ، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض ، ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد أبلغ أداء وأوفاه .

واذا أراد القرآن أن يبرز حالة (نموذجا) من الناس ظاهرهم يغري وباطنهم يؤذي رسم لهم صورة كما يأتي :

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام * واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) . (البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف ، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال .

ومن أمثلة التصوير المشخص لمشاهد الحوادث الواقعة قوله سبحانه : (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم

اذ جائتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) (الأحزاب ٩ ـ ١١) .

فقد رسم فى هذه الآيات مشهدا كاملا برزت فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة والتقت فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية وكأنما الحادث معروض من جديد دون أن يغفل منه قليل أو كثير .

واذا عرض القرآن لمشاهد القيامة أبرزها فى مشاهد متتابعة أو صور متحركة فيقول سبحانه :

(يأيها الناس اتقوا ربكم ان ذلزلة الساعة شىء عظيم* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) (الحج ١ ، ٢) .

فتلحظ فى هذا المشهد صور المرضعات الذاهلات

عما أرضعن والحوامل الملقيات حملهن من الهول ، والسكارى من الذهول والخوف وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

مشاهد الكون

يوجه القرآن النظر الى مشاهد الكون ، ويلفت الانسان الى دلائل القدرة وآيات الابداع الالهى فيقول : **(الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن** من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) (الملك : ٣ ، ٤) .

ومن مشاهد الطبيعة الصامته يعرض القرآن صورة للأرض حين تنبت صنوف النباتات التى تسقى بماء واحد ولكنها تختلف فى الطعم والمذاق فيقول سبحانه : (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل

بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)
(الرعد ٤) .

ومن مناظر الطبيعة المتحركة يعرض القرآن صورة الطير التى تطير باسطة أجنحتها صافة أقدامها ، ثم تقبض أجنحتها كذلك عند الهبوط فيقول سبحانه : (أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شىء بصير) (الملك ٩) .

وهى صورة حية متحركة يراها الناس كل لحظة ، فيمرون عليها غافلين ، فهو يلفت اليها أنظارهم ، ليروها بالحس الشاعر المتأثر ، دليلا على قدرته ورحمته وفى الأرض مشاهد عدة للجمال الطبيعى منها ذلك المنظر المألوف منظر الظل الذى تلقيه الأجرام فيبدو ساكنا وهو يتحرك ببطء لطيف : (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا) (الفرقان ٤٥) .

ونخلص من ذلك الى أن التصوير هو الأداة المفضلة

فى أسلوب القرآن وهو القاعدة المتكررة فيه للبيان ، وهو الطريقة التى يتناول بها جميع الأغراض وهو الخصيصة التى لا يخطئها الباحث فى جميع الأجزاء .

ألوان من الصور المتحركة

يقول سبحانه (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) (يس ٣٨ - ٤٠) .

وفيه ترى الشمس والقمر فى سباق جبار لا ينى أو يفتر فى ليل أو نهار .

ويصف القرآن جهنم وصفا يخلع عليها الحياة والحركة فهى نهمة متغيظة لا يفلت منها أحد ، ولا تشبع بأحد .

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) (ق ٣٠) .

(اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا)
(الفرقان ١٢) •

ويصف القرآن الغضب فيخلع عليه صفة الاحياء من السكون والسكوت فيقول سبحانه : (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح) (الأعراف ١٥٤) •

ومن التصوير البديع قوله سبحانه : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) (الكهف ١٠٩) •

فالخيال يظل يتصور تلك الحركة الدائبة : حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله ، في غير ما توقف ولا انتهاء ، الا أن ينتهى البحر بالنفاد •

ومن التعبير المصور قوله سبحانه : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) (آل عمران ١٨٥) •

فلفظ الزحزحة ذاتها تخيل حركتها المعهوده •

ومن الصور الحسية لاضاعة الأعمال قوله سبحانه :

(وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)
(الفرقان ٢٣) •

ومن بدائع القرآن فى تجسيم المعنويات قوله سبحانه :
(ألم تر كيف ضرب الله مثـلا كلمة طيبة كشجرة طيبـة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثـال للناس لعلهم يتفكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) (ابراهيم ٢٤ ـ ٢٦) •

والكلمة الطيبة هنا هى كلمة التوحيد ، وهى شهادة أن لا اله الا الله ، وهى كلمة طيبة يترتب عليها أثر حسن وأعمال جليلة النفع وتثمر الأقوال والأفعال الحسنة والعبادات والمعاملات المشروعة ، وقد صـور القرآن أثرها بصـورة شـجرة طيبة مثمرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها صاعد الى السماء • وتؤتى ثمارها الحسنة بين وقت وآخر •.

والكلمة الخبيثة هى كلمة الشرك تقطع صاحبها عن الله وقد صورها القرآن بشجرة الشوك أو الحنظل التى يقطعها

الفلاح لاصلاح أرضه فتنتهى حياة الشجرة بالهلاك كما تنتهى حياة المشرك بالعذاب .

ويعبر القرآن عن العمل المعنوى فيجعله حاضرا بنفسه كأنه وديعة تسلم فيقول سبحانه : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) (آل عمران ٣٠) . ويقول : (ووجدوا ما عملوا حاضرا) (الكهف ٤٩) . ويقول : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) (البقرة ١١٠) .

ويتحدث القرآن عن حالة نفسية معنوية هى حالة الضيق والضجر فيجسمها فى صور حسية تجعل ضيق الأرض المعنوى ضيقا حسيا واضحا وواقعيا ، اذ يصف القرآن ثلاثة من المسلمين تخلفوا عن الغزو مع الرسول فى جيش العسرة ثم ندموا وتابوا فيقول : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) (التوبة ١١٨).

ويقول سبحانه : (وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) (غافر ١٨) • فالقلوب كأنما تفارق مواضعها ، وتبلغ الحناجر حقا من شدة الضيق •

وهكذا تتكشف للناظر فى القرآن آفاق وآفاق ، من التناسق والاتساق ، فمن نظم فصيح ، الى سرد عذب ، الى معنى مترابط ، الى نسق متسلسل الى لفظ معبر ، الى تعبير مصور ، الى تصوير مشخص ، الى تخييل مجسم ، الى موسيقى داخلية ، الى اتساق فى الأجزاء ، الى تناسق فى الاطار ، وبهذا كله يتم الابداع ، ويتحقق الاعجاز •

٨ ـ طريقة القرآن

من طريقـة القـرآن أنه يتخير الأسـلوب المناسب للفكرة ، وينوع في نظام الفواصل والقوافي بتنوع الموضوع الذي يعرضه ، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة والخشونة ، وتخير الحرف الأخير الذي تختم به فمن ذلك ما جاء في سـورة مريم فالسورة تبدأ بقصـة زكريا ويحيى ، وتليها قصة مريم وعيسى وتسير الفاصلة والقافية هكذا ٠

(ذكر رحمة ربك عبده زكريا * اذ نادى ربه نداء خفيا ٠٠) (مريم ٢ ، ٣) ٠٠ الخ الآيات ٠٠

ثم يقول : (واذكر فى الكتـاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيـا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسـلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ••) (مريم ١٦ ، ١٧) الى أن تنتهى القصـتان على روى واحد • وفجأة يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة فى قصة عيسى على النحو التالى :

(قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبـارا شـقيا •••) (مريم ٣٠ - ٣٢) •

الى أن يقول سبحانه : (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون * وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ••) (مريم ٣٤ - ٣٦) •

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول ويتغير ختام الفاصلة فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل وكأنما هو فى هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة ،

مستمدا منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى ايقاعا قويا رصينا بدل ايقاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير فاذا انتهى القرآن من اصدار الحكم والقاء القرار عاد الى النظام الأول فى القافيــة والفاصــــلة ، لأنه عاد الى قصص جـديد على النحو التالى :

(فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشـهد يوم عظيم ..) (مريم ٣٧) .. الخ الآيات الى أن يقول سبحانه : (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيـا * اذ قال لأبيـه يا أبت لم تعبد مالا يسـمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ...) (مريم ٤٢ ، ٤٣) ـ الخ الآيات .

ومن ابداع القرآن أن أسلوبه اذا مس الجماد نبض بالحياة وتبدل بقدرة قادرة ، ومعجزة باهره .

فالأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان والدور العامرة والآثار الدائرة والنبات والحيوان والأشجار والافنـان ... كل أولئك أحيـاء ، أو مشـاهد تخاطب الأحياء .

قال تعالى : (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) (المزمل ١٤) فهى حية ترتجف كالآدميين .

ويقول سبحانه : (فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به كان وعده مفعولا) (المزمل ١٧ ، ١٨) . فالسماء المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب .

وهول الطوفان يصور فى الطبيعة والى جانبها يصور فى والد وولده : ذلك ناج فى السفينة ملهوف على فلذة كبده ، وهذا يجرفه الطوفان حيث : (لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) (هود ٤٣) . وان الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول فى الطبيعة : (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) (هود ٤٢) فما كان الموج فى المشهد الا اطارا للهول النفسى الذى يفرق بين الابن وأبيه ويفصم الصلة التى لاتفصمها الأهوال .

العجز عن معرفة الاعجاز

من علماء البلاغة من يرى أن الاعجاز شيء لايمكن التعبير عنه ولكن النفس تحس حيال القرآن باحساس غامض أساسه العجز أمام قدرته وقوته وبيانه ، قال السكاكي في كتابه مفتاح العلوم : « أعلم أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، ولا طريق الى تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة الا باتقان علمى المعانى والبيان والتمرن فيهما » (١) .

وذكر ابن أبى الحديد ـ صاحب شرح نهج البلاغة ـ أن معرفة مقامات الكلام لاتدرك الا بالذوق ، فقال :

اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والأرشق ، والجلى والأجلى ، والعلى والأعلى من الكلام أمر لا يدرك الا بالذوق ، ولا يمكن اقامة الأدلة المنطقية عليه ، وهو بمنزلة جاريتين : احداهما بيضاء مشربة حمرة دقيقة

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢/١٠٠ .

الشفتين نقية الشعر ، كحلاء العينين أسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن ، لكنها أحلى فى العيون والقلوب منها وأليق وأملح ولايدرى لأى سبب كان ذلك ، لكنه بالذوق والمشاهدة يعرف ولايمكن تعليله وهكذا الكلام (١) .

وذهب الخطابى الى أن اعجاز القرآن يرجع الى « صنعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس فانك لاتسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا اذا قرع السمع خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال أخرى ما يخلص منه اليه (٢) . قال الله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) (الحشر ٢١) .

وقال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢/١٢٤ .

(٢) البرهان ٢/١٠٦ .

جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) (الزمر ٢٣) .

الاعجاز التشريعى :

من اعجاز القرآن اشتماله على العلوم الالهية وأصول العقائد الدينية واحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ومكان .

ولاشك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الاعجاز فان علوم العقائد الالهية والغيبية والتشريع الدينى والمدنى والسياسى هى أرقى العلوم ، وقلما ينبغ فيهما من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال ، الا الأفراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب ، ولا نشأ فى بلد علم أو تشريع ، أن يأتى بمثل ما فى القرآن منها تحقيقا وكمالا ، ويؤيده بالحجج والبراهين ، بعد أن قضى ثلثى عمره لايعرف شيئا منها ، ولا ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها ، ولا حكم بفرع من فروعها ، الا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى ؟ .

نور القرآن وهدايته :

نجح القران أى نجاح فى رسالته للهداية والاصلاح ، فهو الذى غرس الايمان فى الكبار والصغار غرسا ، وبثه روحا عاما ، وأشعر النفوس بما جاء فيه اشعارا ودفعها الى التخلى عن موروثاتها ومقدساتها جملة ، وحملها على التحلى بهديه الكريم علما وعملا .

وقد تم ذلك بالاقتناع والرغبة والرضا والاذعان (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) (البقرة : ٢٥٦) .

أما السيف ومشروعية الجهاد فى الاسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة فى نفس ، ولا لاكراه شخص أو جماعة على عبادة ، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن اذلاله واضطهاده ، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة ، حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله .

هذا الأساس الذى وضعه القرآن وحده هو سر نهضته ، وان شئت فقل هو نار ثورته بل هو نور هدايته ،

والروح السارى لاحياء العالم بدعوته ، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذى هز النفوس والمشاعر ، وملك القلوب والعقول ، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزل الى اليوم يخشون بأسه وصولته ، ويخافون تأثيره وعمله أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة ، والحروب الجائحة ، لأن سلطان الجيوش والحروب لاتعدو هياكل الأجسام والأشباح ، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد الى النفوس والأرواح ، بما لم يعهد له نظير فى أية نهضة من النهضات .

ولقد أشار القرآن نفسه الى هذا الوجه من اعجازه ، حين سمى الله كتابه روحا من أمره بقوله : (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) وحين سماه نورا بقوله : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) .

عشرة أوجه للاعجاز :

ذكر القرطبى عشرة أوجه لاعجاز القرآن هى :

١ ــ نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود .

٢ ـ أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب .

٣ ـ جزالته التى لاتمكن لمخلوق .

٤ ـ التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لايستقل به عربى .

٥ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان ، كوعد المؤمنين بالنصر .

٦ ـ الأخبار عن المغيبات المستقبله التى لايطلع عليها الا بالوحى .

٧ ـ ما تضمنه القرآن من العلوم المختلفة التى بها قوام الأنام .

٨ ـ اشتماله على الحكم البالغة .

٩ ـ عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه .

١٠ـ الأخبار عن الأمور التى تقدمت من أول الدنيا الى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر الى حيث يختلط بأهل الكتاب .

وذكر صاحب المنار سبعة أوجه لاعجاز القرآن . أهمها :

صدور القرآن من أمي ، وبلاغته الفائقة ، وغرابة أسلوبه ، وانباؤه الغريبة الصادقة .

وقد بالغ بعض المحدثين في عد وجوه الاعجاز حتى ادخل فيها ما ليس منها والقرآن غني عن اطرائه بما ليس فيه ولا من خصائصه ، ويحضرني في هذا المعنى ماروا البخاري : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتطروني ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، قالوا : انه ابن الله » .

كما أن بعض المبشرين المحدثين حاول النيل من القرآن فذكر ان اعجاز القرآن مقصور على الناحية اللفظية وهي ناحية الفصاحة وحدها . وتطرق من ذلك الى أن الفصاحة لاتخص القرآن وحده بل يشترك معه كل كلام فصيح وهي مغالطة مكشوفة ، فأسلوب القرآن يتميز على غيره من الأساليب من ناحية لفظه ومن ناحية معناه .

فمن خصائص الأسلوب القرآنى ما يأتى :

١ ـ مسحة البداوة مع اشتماله على بسائط الحضارة .

٢ ـ ارضاؤه العامة والخاصة .

٣ ـ ارضاؤه العقل والعاطفة .

٤ ـ جودة السبك واحكام السرد .

٥ ـ براعته فى تصريف القول .

٦ ـ جمع القرآن بين الاجمال والبيان .

٧ ـ القصد فى اللفظ مع الوفاء بالمعنى .

هذه ألوان من نواحى الاعجاز فى القرآن الكريم ، وهناك جوانب متعددة من اعجازه منها ما أدركه العلماء ومنها ما عجزوا عنه ولايزال الزمان وتجدده ، والعلم وتطوره يكشفان من اعجاز هذا الكتاب كل جديد . ويتضح للعيان ما فيه من اعجاز الهى فى التشريع ، واعجاز الهى فى العقيدة ، واعجاز الهى فى الحكمة ، واعجاز الهى فى الارشاد الى خير سبل السعادة والنجاة فى الدنيا والآخرة ،

واعجاز الهى فى التبشير والانذار والترغيب والترهيب ، واعجاز الهى فى عرض بدائع الكون ومشاهد عظمته وروعته ، ونواميسه الماثلة فى كل شىء ، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته واحاطته ، واعجاز الهى فيما احتواه من فصول الجدل والحجاج والافحام والالزام ، واعجاز الهى فيما احتواه من الغيبيات السالفة والغيبيات الآتية ، واعجاز الهى فى صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان ، وجنس ولون وعقل وثقافة .

ويؤيد ذلك ماروواه الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الا انها ستكون فتنة . فقلت ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولايشبع منه العلماء ، ولا يخلق

على كثرة الرد ، ولاتنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد) ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم) .

الفصل الثالث

من علوم التفسير

١ ـ القصة فى القرآن

٢ ـ أمثال القرآن

٣ ـ القسم فى القرآن

خاتمة فى تلاوة القرآن

١ ـ القصة فى القــرآن

القصة هى وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع معين من الحياة يتناول حادثة واحدة أو عددا من الحوادث بينها ترابط سردى ، ويجب أن تكون لها بداية ونهاية (١) •

ويقسم الفن القصصى من ناحيــة القالب والمظهر الى أربعة أقسام :

١ ـ الاقصوصة : وهى قصــة قصــيرة يعالج فيها الكاتب جانبــا من حيــاة ، لاكل جوانب هذه الحيــاة • فهو يقتصر على سرد حادثة ، أو بضــع حوادث يتألف

(١) القرآن والقصة الحديثة : محمد كامل حسن المحامى ص ٩ •

منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته . على أن الموضـوع ، مع قصره يجب أن يـكون تاما ناضجا من وجهة التحليل والمعالجة ، ولا يتهيأ هذا الا ببراعة يمتاز بهـا الكاتب الاقصـوصى ، اذ أن المجال أمامه ضيق محدود ، يتطلب التركيز الفنى .

٢ ـ القصة وتتوسـط بين الاقصوصـة والرواية ، وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج فى الأولى ، فلا بأس هنا أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ويتوالى تطورها فى شىء من التشابك .

٣ ـ الرواية : وفيهـا يعـالج المؤلف موضـــوعا كاملا أو أكثر ، زاخرا بحياة تامة أو أكثر ، فلا يفرغ القارىء منهـا الا وقد ألم بحيـــاة البطل أو الابطال فى مراحلها المختلفة .

٤ ـ اما الحكاية فهى سرد واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكى قواعد الفن الدقيقة ، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه .

ويفرض العلماء فى القصـة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسـية هى الموضـوع ، والشخصـيات ، والحوار • ثم يضيفون بدقة شروط كل من هذه العنـاصر ويبينون أنواع الخلل التى تطـرأ عليها فتحيلها من قصـة فنيـة الى غير فنيـة ، ومن القواعد التى يقرونها ما يأتى :

١ ـ أن تكون للقصة وحدة فنية •

٢ ـ أن يراعى فى عرضها جانب التلميح ما أمكن •

٣ ـ أن يعنى كاتبها برسم شخصيات القصة •

٤ ـ أن يكون للقصة هدف ومغزى •

٥ ـ الا تظهر فيها الموعظة أو الحكمة ظهورا مباشرا•

٦ ـ الا تخلو من عنصر التشويق •

٧ ـ ان يـكون اسـلوبها طبيعيـا لاهو بالمتهـافت ولا بالبالغ الصعوبة •

والقصـة فى القرآن الكريم ليست عملا فنيا مستقلا فى موضـوعه وطريقة عرضـه وادارة حوادثه ـ كما هو

الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى الى غرض فنى طليق ، انما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة الى اغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة احدى وسائله لابلاغ هذه الدعوة وتثبيتها •

وقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وفى طريقة عرضها ، وادارة حوادثها ، لمقتضى الأغراض الدينية ، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها ، ولاسيما خصيصة القرآن الكبرى فى التعبير ، وهى التصوير (١) •

أنواع القصص فى القرآن

القصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم الى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب ص ١١٧ -

المؤمنين والمكذبين ، كقصص نوح وابراهيم وموسى وهارون ، وعيسى ، ومحمد وغيرهم من الأنبيــاء والمرسلين ، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة الذين اخرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت وطالوت ، وجالوت ، وابنى آدم ، وأهل الكهف ، وذى القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم وأصحاب الاخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى التوبة وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والاسراء ونحو ذلك (١) .

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٦٠ .

أغراض القصة في القرآن :

سيقت القصة في القرآن لتحقيق أغراض دينية بحته ، وقد تناولت من هذه الأغراض عددا وفيرا من الصعب استقصاؤه ، لأنه يكاد يتسرب الى جميع الأغراض القرآنية ، فاثبات الوحي والرسالة ، واثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان في اساسها والانذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الالهية ، وعاقبة الخير والشر ، والعجلة والتريث ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية قد تناولته القصة وكانت اداة له وسبيلا اليه .

فاذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية فانما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها وهي :

١ ـ اثبات الوحي والرسالة ، وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح الى عهد محمد . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة والله الواحد رب الجميع .

وفي سورة الأنبياء مظهر واضح لوحدة الرسالة فقد

تحدثت السورة عن قصص الأنبياء فذكرت طرفا من قصة موسى وهارون وابراهيم ولوط وداود وسليمان وأيوب واسماعيل وادريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ومريم ، ثم عقبت على ذكرهم جميعا بالآية الكريمة : (ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (الأنبياء ٩٢) وهذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل • وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضا وفي ثناياه •

٣ ـ بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم لهم متشابه ، فضلا عن أن الدين من عند الله اله واحد ، وأنه قائم على أساس واحد • وفي سورة هود يقول القرآن الكريم ••

(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ★ الا تعبدو الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ••• الخ الآيات) (هود ٢٥ ـ ٤٩) •

(والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم

من اله غيره ان انتم الا مفتـرون) •• الخ الآيات (هود ٥٠ ـ ٦٠) •

(والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) •• الخ الآيات (هود ٦١ ـ ٦٨) •

فنجد فى هذه الآيات من سورة هود أن دعوة الرسل واحدة واجابة قومهـم تكاد تكون واحـدة ، وأن قصة كل نبى تتشابه مع الأخرى فى الدعوة والجهاد والنضال ، والبداية والختام •

٣ ـ بيان ان الله ينصر أنبياءه فى النهاية ويهلك الكاذبين ، وفى ذلك تثبيت لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلوب الأمة المحمدية ، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وأهله •

لقد نصر الله نوحـا وأغـرق قومه ، وأنقذ ابراهيم من النار ونجاه من كيد الكافرين وأنقذ لوطا وأهلك قومه بالخسف والعذاب وقصص الأنبياء يحكى عاقبة

المكذبين بالرسل وماذاقوا من ألوان العذاب .
قال تعالى :

(وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (العنكبوت ٣٩ ، ٤٠) .

وتلك هى النهاية الواحدة للمكذبين .

ويقول سبحانه : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) (هود ١٢٠) .

٤ ـ تصديق الأنبياء السابقين واحياء ذكراهم وتخليد آثارهم وبيان نعمة الله تعالى عليهم كقصص سليمان وداود وأيوب وابراهيم ومريم وعيسى وزكريا

ويونس وموسى ، فكانت ترد حلقــات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة فى مواقف شتى •

٥ ــ وللقصة فى القرآن أغراض أخرى متفرقة منها : ــ

بيــان قدرة الله على الخوارق : كقصــة خلق آدم • وقصــة مولد عيسى ، وقصــة ابراهيم والطير الذى آب اليه بعد أن جعل على كل جبــل منه جزءا وقصة « الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها » وقد اماته الله مائة عام ثم بعثه •

وبيان عاقبــة الاستقامة والصلاح ، وعاقبة الانحراف والافساد كقصة ابنى آدم ، وقصة صاحب الجنتين • وقصص بنى اسرائيل بعد عصيانهم • وقصة سد مأرب وقصة أصحاب الأخدود •

وبيان الفارق بين الحكمة الانسانية العاجلة ، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة كقصة موسى والخضر •

الى آخر هذه الأغراض الوعظية ، التى كانت تساق لها القصص فتفى بمغزاها •

آثار خضوع القصة للغرض الديني

خضعت القصة فى القرآن للاغراض الدينيــة فترك هذا الخضوع آثارا واضحة فى طريقة عرضها بل وفى مادتها ومن أوضح هذه الآثار ما يأتى :

١ ـ تكرار القصة الواحدة :

ونعنى بالتكرار أن ترد القصــة الواحــدة مكررة فى مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لايتناول القصة كلها ـ غالبا ـ انما هو تكرار لبعض حلقاتهــا ، ومعظمه اشــارات سريعة لموضع العبرة فيها . اما جسم القصــة كله فلا يكرر الا نادرا ولمناسبات خاصة فى السياق .

وحين يقــرأ الانســان هذه الحلقــات المكررة ملاحظا السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماما ، فى اختيــار الحلقة التى تعرض هنا أو تعرض هناك ، وفى طريقة عرضها كذلك ، ويجب أن نذكر دائما أن القرآن كتاب دعوة دينية ، وأن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم .

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة ـ يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها ـ فمعظم القصص يبدأ باشارة مقتضبة ثم تطول هذه الاشارات شيئا فشيئا ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون فى مجموعها جسم القصة ، وقد تستمر الاشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى اذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الاشارات هى كل ما يعرض منها •

ونضرب مثالا على هذا النظام ، قصة موسى ، اذ انها أشد القصص فى القرآن تكرارا فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة عن هذا التكرار • وردت هذه القصة فى حوالى الثلاثين موضعا فى القرآن : من أهمها ما ذكر فى عشرين سورة سنذكرها حسب ترتيب نزولها :

فى سورة الأعلى ثم فى سوة الفجر ثم فى سورة الاعراف •• ثم الفرقان ثم مريم ثم طه ، ثم الشعراء ثم النمل ثم القصص ثم الاسراء ثم يونس ثم هود ثم غافر

ثم فصلت ثم الذاريات ثم الكهف ثم ابراهيم ثم الأنبياء ثم النساء ثم المائدة .

واذا قرأنا الآيات التى تناولت قصة موسى فى هذه السور رأينا ان فيها نوعا من التكرار وأنه ـ فيما عدا ستة مواضع ـ اشارات وعظية الى القصة اقتضاها السياق ، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريبا ، واذا كررت حلقة منها جاءت بشيء جديد فى تكرارها . وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى وعلى ضوئها ندرك أن ليس فى القصص القرآنى ذلك التكرار المطلق الذى يخيل لبعض من يقرءون القرآن بلا تدقيق ولا امعان .

٢ ـ انتخاب أجزاء من القصة :

وكان من آثار خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى ـ غير التكرار ـ أن تعرض بالقدر الذى يكفى لاداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التى تتفق معه ، فمرة تعرض القصة من أولها ومرة من وسطها ومرة من آخرها وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى

ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسبما تكمن العبرة فى هذا الجزء أو ذاك . ذلك أن الهدف التاريخى لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصى سواء ، فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الدينى . (١) على النحو التالى :

(أ) نجد قصصا تعرض منذ الحلقة الأولى : حلقة ميلاد بطلها ، لأن فى مولده عظة بارزة وذلك مثل قصة ميلاد أدم وعيسى . لأن مولدهما دليل القدرة الكاملة لله (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (آل عمران ٢٩) .

كما عرض القرآن قصة موسى من حين مولده ، ونجاته من القتل وقصة اسماعيل حيث ولد لابراهيم على الكبر ، وقصة ميلاد يحيى حين استجاب الله لدعاء والده زكريا .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٢ .

(ب) ونجد قصصا أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبيا .
فيوسف تبدأ قصته صبيا يرى رؤيا تسير حياته كلها ، وتؤثر في مستقبله ، وابراهيم تبدأ قصة فتى ينظر في السماء فيرى نجما فيظنه الهه فاذا أفل قال لا أحب الآفلين ثم يرى القمر والشمس ... ثم يفيء الى ربه ويمضي في رسالته .

(ح) ثم نجد قصصا لاتعرض الا في حلقة متأخرة جدا .
فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لا تعرض قصصهم الا عند حلقة الرسالة ، وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم لأنها أهم حلقة منها ، والعبرة كامنة فيها .

٣ ـ الموعظة :

وكان من أثر خضوع القصة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة ، قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك .

وفي قصة يوسف وقصة آدم ونوح وهود ما يوضح

ذلك واذا تتبعنا قصص القرآن وجدنا عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب العبرة فيها ٠

« لأن الغرض الأساسي من سياق القصة في القرآن هو الغرض الديني أولا وقبل جميع الأغراض » (١) ٠

تنوع المفاجأة وطريقة العرض

ان خضوع القصة للغرض الديني لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها فقد لمس القرآن الوجدان ، واتبع في ذلك طريقة التصوير ، فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أقرب طريق ومن أرفع طريق ٠

ومن الخصائص الفنية في القصة القرآنية ما يأتي :

تنوع طريقة المفاجأة :

١ ـ فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة ، حتى يكشف لهم معافي آن واحد ، مثال ذلك قصة موسى

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٣٨ ٠

مع الخضر فى سورة الكهف ، فقد خرق الخضر السفينة ثم قتل الغلام ، ثم أقام الجدار وفى نهاية القصة يبين الخضر لموسى سر هذه الأفعال .

٢ ـ ومرة يكشف بعض السر للنظارة . وهو خاف على البطل فى موضع وخاف عن النظارة وعن البطل فى موضع آخر فى القصة الواحدة .

مثال ذلك عرش بلقيس الذى جىء به فى غمضة عين . ثم اسلام بلقيس فى النهاية بعد أن رأت صرحا ممردا من قوارير فقالت : (رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (النمل ٤٤) .

٣ ـ ومرة يكشف السر للنظارة منذ أول لحظة مثل قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن) التى تبدأ بقوله تعالى : (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين) (ن ١٧) .

تنوع طريقة العرض :

من الخصائص الفنية للقصة القرآنية تنوع طريقة العرض .

ونشاهد فى قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء فى عرض القصة على النحو التالى :

١ ـ مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها الى نهايتها وذلك كطريقة قصة قصة (أهل الكهف) فى سورة الكهف .

٢ ـ ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها وذلك كقصة موسى فى سورة القصص ، وقريب من هذا النحو قصة يوسف فهى تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هى تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها .

٣ ـ ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ويكون فى مفاجآتها الخاصة ما يغنى مثل ذلك قصة

مريم عند مولد عيسى ومفاجآتها ، وقصة سليمن مع النمل والهدهد وبلقيس فى سورة النمل .

٤ ــ ومرة يحيل القصة تمثيلية مثل قصة ابراهيم وحواره مع قومه عند تكسير الأصنام ، وحواره مع ولده عندما أمر بذبحه وتعاونه مع ولده فى بناء البيت ، قال تعالى : (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) (البقرة ١٧٧) وفى حوار ابراهيم مع ربه يقول القرآن (واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) (البقرة ٢٦٠) .

تلك بعض سمات القصة فى القرآن ، وهى سمات تيسر لنا القول بأن « القرآن يجعل من الجمال الفنى اداة

مقصـــودة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاســة الوجــدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية » (١) •

ولكن مظاهر التنسيق الفنى فى القصــة القرآنيــة ، لا تخضع للقواعد الفنية للقصة الحديثة ولا تتقيد بها •

فهى تتوافق معها فى بعض الأحيــان ، وقد تنفــرد بابداعها الفنى فى بعض الأحيـــان ، لكنهــا فى الاتفاق والاختلاف تبقى دائما قصة قرآنية لها ســماتها وخصائصها وميزاتها الخاصة دون أن تكون عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضـــه وادارة حوادثه ، ويبقى هدفهــا الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته • قال تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) (يوسف ٣) •

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٩ •

٢ ـ أمثال القـــرآن

من أساليب القرآن الكريم فى ضروب بيانه ونواحى اعجازه ضرب الأمثـال للنـاس وابراز المعقول فى صـورة المحســوس وعرض الغائب فى معرض الحاضر ، وقياس النظير على النظير ، وبذلك يسلك القرآن سبيله الى الاقناع بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد أفرد أمثال القرآن بالتأليف عدد من العلماء منهم الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمى النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ والامام شمس الدين محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٤ هـ والامام أبو الحسن على

ابن محمد بن حبيب الماوردى الشافعى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وعقد السيوطى فى الاتقان بابا لأمثال القرآن وفصلا لأقسام الأمثال وأنواعها (١) وفصل ذلك ابن القيم فى كتاب اعلام الموقعين .

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أنه يضرب الأمثال فقال سبحانه : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) (الزمر ٢٧) .

وقال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) (العنكبوت ٤٣) (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) (الحشر ٢١) .

وأخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال » .

---

(١) الاتقان ٢/١٣١ ، ١٣٢ .

قال الماوردى من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس فى غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال واغفالهم الممثلات ، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام ، والناقة بلا زمام •

وقال غيره : قد عده الامام الشـــافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال : ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدالة على طاعته المبينة لاجتناب ناهيه ، وقال الشيخ عز الدين انما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيرا ووعظا فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب أو على احباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فانه يدل على الأحكام ، وقال غيره ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة منهـــا :

التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس فان الأمثال تصور المعانى بصـــورة الأشـــخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاســـتعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض من

المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد (١) .

وقال الزركشى فى البرهان ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة .

تعـــريف المثـل

والأمثال : جمع مثل ، والمثَل والمثل والمَثيل : كالشبه والشبه والشبيه لفظا ومعنى .

والمثل فى الأدب : قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحـال الذى قيـل لأجله ، أى يشبه مضربه بمورده ، مثل « رب رمية من غير رام » أى رب مصيبة حصلت من رام شـأنه أن يخطىء ، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النقرى ، يضرب للمخطىء يصيب أحيانا ، وعلى هذا فلابد له من مـورد يشـبه مضربه به . ولاتختلف صيغة المثل فى كل استعمالاته فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث بصيغته التى ورد عليها ، ويطلق المثـل على الحال والقصـة العجيبة الشـأن ، وبهذا

---

(١) الاتقان ٢/١٣١ وانظر تاريخ التفسير للشيخ قاسم القيسى مطبعة المجمع العلمى بالعراق ص٩٩ وفيه نص كلام السيوطى.

المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات • كقوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن ١٥ ـ محمد) (١) : أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها •

وأشار الزمخشري الى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال : « والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير ، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل • ولم يضربوا مثلا ولا رأوه هلا للتسيير ولا جديرا بالتداول والقبول الا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه ثم قال : وقد استعير المثل للحال أو الصفة أو القصة اذا كان لها شأن وفيها غرابة •

وهناك معنى رابع ذهب اليه علماء البيان في تعريف المثل • فهو عندهم : المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله • وأصله الاستعارة التمثيلية • كقولك للمتردد في فعل أمر : « مالي اراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى » •

---

(١) انظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد الخضر حسين صفحة ٢٦ •

وقيــل فى ضابط المثــل كذلك : انه ابراز المعنى فى صــورة حسية تكسبه روعة وجمالا . والمثــل بهذا المعنى لايشترط ان يــكون له مورد . كمــا لايشترط ان يكون مجازا مركبا .

واذا نظرنا الى أمثــال القرآن التى يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمــر بحال أمر آخر ، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة ، أم بطــريق التشــبيه الصريح ؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بايجاز ، أو التى يصح استعمالها فيما يشبه ماوردت فيه ، فان الله تعالى ابتدأها دون ان يــكون لهــا مورد من قبـــــل .

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولايستقيم حملها على ما يذكر فى كتب اللغة لدى من ألفوا فى الأمثــال ، اذ ليست أمثال القرآن أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثــال عند علماء البيــان فمن

أمثال القرآن ما ليس باستعارة ومالم يفش استعماله . ولذا كان الضابط الأخير اليق بتعريف المثل فى القرآن : فهو ابراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس ، سواء كانت تشبيها أو قولا مرسلا .

فابن القيم يقول فى امثال القران : تشبيه شيء بشيء فى حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، او احد المحسوسين من الاخر واعتبار احدهما بالاخر . ويسوق الأمثلة : فنجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى (انما مثل الحياة كماء انزلناه من السماء) ٢٤ ـ يونس، ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمنى ، كقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) (١٢ ـ الحجرات) ، اذ ليس فيه تشبيه صريح . ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة ، كقوله تعالى (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) (٧٣ ـ الحج) ، فقوله (ان الذين تدعون من

دون الله لن يخلقوا ذبابا) قد سماه الله مثلا وليس فيه استعارة ولا تشبيه .

أنواع الامثال فى القرآن

الأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع : ١ ـ الأمثال المصرحه ٢ ـ الأمثال الكامنه ٣ ـ الأمثال المرسله .

النوع الأول : الأمثال المصرحة : وهى ما صرح فيها بلفظ المثل ، أو ما يدل على التشبيه . وهى كثيرة فى القرآن نورد منها ما يأتى :

(أ) قوله تعالى فى حق المنافقين (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) الى قوله ـ (ان الله على كل شىء قدير) (١٧ ـ ٢٠ البقرة) .

ففى هذه الآيات ضرب الله للمنافين مثلين : مثلا ناريا فى قوله : (كمثل الذى استوقد نارا ..) لما فى النار من

مادة النور ، ومثلا مائيا فى قوله : (أو كصيب من السماء) لما فى الماء من مادة الحياة ، وقد نزل الوحى من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين فى الحالين • فهم بمنزلة من استوقد نارا للاضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديا بالدخول فى الاسلام ، ولكن لم يكن له أثر نورى فى قلوبهم • فذهب الله بما فى النار من الاضاءة (ذهب الله بنورهم) وابقى ما فيها من الأحراق • وهذا مثلهم النارى •

وذكر مثلهم المائى فشبههم بحال من اصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع اصبعيه فى اذنيه وغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق •

(ب) وذكر الله المثلين : المائى والنارى ـ فى سورة الرعد للحق والباطل • فقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع

الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)
(١٧ ـ الرعد) .

شبه الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الارض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، وبالسيل اذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء ، فكذلك الهدى والعلم اذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا هو المثل المائى فى قوله (أنزل من السماء ماء ..) وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

وذكر المثل النارى فى قوله (ومما يوقدون عليه فى النار ..) فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذى ينتفع به فيذهب جفاء . فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث .

النوع الثانى من الأمثال : الأمثال الكامنة ـ وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان

رائعة في ايجاز ، يكون لها وقعها اذا نقلت الى ما يشبهها ، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها :

١ ــ ما في معنى قولهم « خير الأمور الوسط » •

(أ) قوله تعالى في البقرة (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) (٦٨ ــ البقرة) •

(ب) قوله تعالى في النفقة (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (٦٧ ــ الفرقان) •

(ج) قوله تعالى في الصلاة (ولا تجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) (١١٠ ــ الاسراء) •

(د) قوله تعالى في الانفاق (ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) (٢٩ ــ الاسراء) •

٢ ــ ما في معنى قولهم « ليس الخبر كالمعاينة » •

قوله تعالى فى ابراهيم عليه السلام (قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) (٢٦٠ ـ البقرة) •

٣ ـ ما فى معنى قولهم « كما تدين تدان »

قوله تعالى (من يعمل سوءا يجزبه) (١٢٣ ـ النساء) •

٤ ـ ما فى معنى « لايلدغ المؤمن من حجر مرتين » •

قوله تعالى على لسان يعقوب : (هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل) (٦٤ ـ يوسف) وقد أورد السيوطى فى الاتقان أحد عشر مثالا من هذا القبيل (١) •

النوع الثالث : الأمثال المرسلة فى القرآن : وهى جمل أرسلت ارسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه • فهى آيات جارية مجرى الأمثال •

---

(١) انظر الاتقان ٢/١٣٢ وقارن بالتعبير الفنى فى القرآن للدكتور بكرى شيخ امين ص ٢٢٩ ، ومباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٤٤ •

ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

١ ـ (الآن حصص الحق ٥١ ـ يوسف) ٢ ـ (ليس لها من دون الله كاشفة ٥٨ النجم) ٣ ـ (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ٤١ ـ يوسف) ٤ ـ (أليس الصبح بقريب ٥٨ ـ هود) ٥ ـ (لكل نبأ مستقر ٦٧ ـ الأنعام) ٦ ـ (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ٤٣ ـ فاطر) ٧ ـ (قل كل يعمل على شاكلته ٨٤ ـ الاسراء) ٨ ـ (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ٢ ـ البقرة) ٩ ـ (كل نفس بما كسبت رهينة ٣٨ ـ المدثر) ١٠ ـ (هل جزاء الاحسان الا الاحسان ٦٠ ـ الرحمن) ١١ ـ (كل حزب بما لديهم فرحون ـ ٥٣ ـ المؤمنون) ١٢ ـ (ضعف الطالب والمطلوب ٧٣ ـ الحج) ١٣ ـ (لمثل هذا فليعمل العاملون ٦١ ـ الصافات) ١٤ ـ (لا يستوى الخبيث والطيب ١٠٠ ـ المائدة) ١٥ ـ (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ٢٤٩ ـ البقرة) ١٦ ـ (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ١٤ ـ الحشر) .

واختلفوا فى هذا النوع من الآيات الذى يسمونه ارسال المثل ، ما حكم استعماله استعمال الأمثال ؟

« فرآه بعض أهل العلم خروجا عن أدب القرآن ، قال الرازى فى تفسير قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز ، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به ، بل يتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه » .

ورأى آخرون انه لاحرج فيما يظهر ان يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد ، كأن يأسف آسفا شديدا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول : (ليس لها من دون الله كاشفة) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه الى باطله فيقول (لكم دينكم ولى دين) والاثم الكبير فى ان يقصد الرجل الى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح (١) .

---

(١) بلاغة القرآن ص ٣٣ .

فوائد الأمثـــال

١ ـ الأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمســه الناس ، فيتقبله العقل لأن المعــانى المعقولة لاتستقر فى الذهن الا اذا صيغت فى صــورة حسية قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء ، حيث لايحصل من انفـاقه على شىء من الثواب ، فقال تعالى (فمثله كمثل صــفوان عليه تراب فأصــابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شىء مما كسبوا ٢٦٤ ـ البقرة) .

٢ ـ وتكشف الأمثال عن الحقائق ، وتعرض الغائب فى معرض الحــاضر ، كقوله تعــالى (الذين يأكلون الربا لا يقومــون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشــيطان من المس ٢٧٥ ـ البقرة) .

٣ ـ وتجمع الأمثال المعنى الرائع فى عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة فى الآيات الأنفة الذكر .

٤ ـ ويضرب المثــل للترغيب فى الممثل حيث يكون

الممثل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق فى سبيل الله حيث يعود عليه الانفاق بخير كثير ، فقال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ٢٦١ - البقرة) .

٥ - ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى فى النهى عن الغيبة (ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ١٢ الحجرات) .

٦ - ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى فى الصحابة (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ٢٩ - الفتح) وكذلك حال الصحابة فانهم كانوا فى بدء الأمر قليلا ، ثم أخذوا فى النمو حتى استحكم أمرهم . وامتلأت القلوب اعجابا بعظمتهم .

٧ - ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة

يستقبحها الناس ، كما ضرب الله مثلا لحال من آتاه الله كتابة ، فتنكب الطريق عن العمل به ، وانحط فى اهوائه ، فقال تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى اتيناه اياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ١٧٤ ، ١٧٥ ـ الاعراف) .

٨ ـ والأمثال أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الوعظ ، وأقوى فى الزجر ، وأقوم فى الاقناع ، وقد أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة ، قال تعالى : (وضربنا لكم الأمثال) وقد ضربها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، واستعان بها الداعون الى الله فى كل عصر لنصرة الحق واقامة الحجة ، ويستعين بها المربون ، ويتخذونها من وسائل الايضاح والتشويق ، ووسائل التربية فى الترغيب أو التنفير ، فى المدح أو الذم (١) .

---

(١) مناع القطان مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٧ .

من أمثال العرب

استعمل العرب المثل في اشعارهم ونثرهم ، كما ورد في السنة النبوية طائفة من الأمثال ، وعقد لها أبو عيسى الترمذي بابا في جامعة أورد فيه أربعين حديثا ، وقال القاضي أبو بكر بن العربي « لم ار من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال بابا غير أبي عيسى ولله دره لقد فتح بابا ، وبنى قصراً أو دارا ولكنه اختط خطا صغيرا فنحن نقنع به ونشكره عليه » .

وسأورد هنا طائفة من الأمثال العربية السائرة وهي في مجموعها تدل على مفهوم خاص للطبيعة العربية في جاهليتها واسلامها :

المثـــل	موضـــوعه
ان البغاث بأرضنا يستنسر	يضرب للضعيف يصير قويا
ان العوان لاتعلم الخمره	يضرب للخبير المجرب
ان الجبان حتفه من فوقه	يضرب لمن يخاف من محذور فيصيبه
انما أكلت يوم أكل الثور الأبيض	الاتعاظ بما حدث للغير
اذا تخاصم اللصان ظهر المسروق	الاختلاف يظهر الشيء الضائع
رب أخ لك لم تلده أمك	الأخوه الصادقة
أن ترد الماء بماء أكيس	الاستعداد للأمر واحكامه
ما يوم حليمة بسر	اشتهار الأمر
نفس عصام سودت عصاما	الاعتماد على النفس
زرغبا تزدد حبا	تقليل الزيارة
لعل له عذر وأنت تلوم	التماس الاعذار للناس
لا ناقتى فى هذا ولا جملى	الأمر ليس فيه مصلحه

المثــل	موضـــوعه
لو ترك القطا ليــلا لنـــام	الأمر الخفى يظهر ما يدل عليه
الصيف ضــيعت اللبن	الأمـــر يطلب بعـد فواته
بلـــغ الســـيل الزبى	الامور تتجـاوز فى الشــده
اذا اردت ان تطاع فســـل ما يستطاع	الأمر بما فى الطاقة والوسع
قلب له ظهـــر المجـن	تبــــدل الأحـــوال
لكل ساقطـــة لاقطـــة	التحـــرز فى الكلام
من أكل على مائدتين اختنق	التذبذب على الموائد
يقدم رجلا ويؤخر أخرى	التـردد فى الأمـــر
من يمدح العروس الا أهلها	تعصـــب المرء لأهلـه
كمــــا تـدين تـــدان	الجزاء من جنس العمل
من جـد وجـد ومن زرع حصـد	الجـــد والاجتهــــاد
الحاجــــة تفتق الحيــلة	الحاجـة سبب الاختـراع

المثـــل	موضـــوعه
عند الصــباح يحمد القوم السرى	الراحـــة بعـــد التعب
يعلم من أين تؤكل الكتف	الرجل العارف بوجه المنفعة
كل اناء بالذى فيه يرشـــح	رجوع الفـرع الى أصــله
تجـوع الحـرة ولا تأكـل بثدييها	رفض الكريم العمل الخسيس
ان المنبت لا أرضـا قطـع ولا ظهرا ابقى	الرفق والتوسط فى الأعمال (حديث شريف)
الظلم مرتعــه وخيـــم	عاقبـــة الظـــلم
عند جهينـة الخبـــر اليقين	العلـم ببواطن الأمـــور
ان لله جنودا منها العســـل	قد يكون الهلاك فى الشىء المحبوب
صـدرك أوســع لسرك	كل انســـان اكتم لسره
ألق دلـوك فى الدلاء	المزاحمة فى معترك الحيـاة
لكل مقام مقــــال (١)	مطابقة المقـــال للحـــال

(١) أنظر : من أمثال العرب — تأليف محمد عبد الغنى حسن .

وتلاحظ على الأمثال العربية انها تجمع صفات أربعة :

١ ـ ايجاز اللفظ

٢ ـ أصابة المعنى

٣ ـ حسن التشبية

٤ ـ جودة الكناية

ولكن المثل فى القرآن لايخضع لهذه الشروط لأن أمثلة القرآن أنواع منها الأمثال المصرحة ، والأمثال الكامنة والأمثـال المرسلة وقد اعترض بعض الكتـاب المحدثين على ما ذهب اليه السيوطى فى الاتقان حيث عد السيوطى أحد عشر مثالا من الأمثال الكامنة فى القرآن مثل (من يعمل سوءا يجز به) النســاء ـ ١٢٣ فهى فى معنى قولهـم « كمـا تدين تدان » .

وأيضا قوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) (يونس ٣٩) فهى فى معنى « من جهل شيئا عاداه » .

قال هذا الباحث : « ويبدوا لنا أن ذلك تنطع وتكلف

لأحد لهما .. لأن الصيغة التى تشترط فى المثل لاتتوافر فيها ولذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطى ومن تبعه ولانعتبر الأمثال الكامنة شيئا يستحق ان يدرج فى بحث الأمثال » (١) .

ونحن لانوافق هذا الباحث على رأيه ونرى ان الأمثال القرآنية لاتخضع لما يشترطه الدارسون العرب فى المثل السائر من ايجاز اللفظ ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية ، لأن للقرآن اسلوبا يتميز به على سائر الكلام فأحيانا يوافق الشروط المطلوبة فى المثل وأحيانا يخرج عليها ولكنه فى كلا الحالتين يظل مثلا من أمثلة القرآن المتعددة الأنواع كما أسلفنا .

---

(١) دكتور بكرى شيخ أمين التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٢٩ .

٣ ـ القسم فى القرآن

ورد القسم فى القرآن بالحق سبحانه فى سبعة مواضع ، وباقى أنواع القسم كلها بمخلوقات الله ، والملاحظ أن القرآن قد أقسم بلفظ الرب فى المواضع السبعة التى ورد فيها القسم بالله سبحانه . مثل قوله تعالى :

(فوربك لنسألنهم أجمعين) (الحجر ٩٢) .

وقوله (فورب السماء والأرض انه لحق) (الذاريات ٢٣) .

وقوله (فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون) (المعارج ٤٠) (١) •

ومن قسم القرآن بمخلوقات الله قوله

(والضحى * والليل اذا سجى) (سورة الضحى ١و٢ •

وقوله سبحانه (والتين والزيتون) (سورة التين ١)•

وقوله عز شأنه (فلا أقسم بمواقع النجوم * وانه لقسم لو تعلمون عظيم) (الواقعة ٧٥ ، ٧٦) •

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض وللمخاطب حالات مختلفة ، هي المسماة في المعاني باضرب الخبر الثلاثة :

الابتدائي والطلبي والانكاري •

---

(١) عند الزركشي في البرهان بقية المواضع التي أقسم الله فيها بنفسه (ج٣ ص٤٠) وهي قوله تعالى (قل اى وربي انه لحق) يونس٥٣ وقوله سبحانه (قل بلى وربى لتبعثن) التغابن ٧ ، وقوله (فوربك لنحشرهم والشياطين) مريم ٦٨ وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) النساء ٦٥ •

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيلقى اليه الكلام غفلا من التأكيد ويسمي هذا الضرب ابتدائيا .

وقد يكون مترددا فى ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ويسمى هذا الضرب طلبيا .

وقد يكون منكرا للحكم ، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر انكاره قوة وضعفا ، ويسمى هذا الضرب انكاريا .

والقسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشيء فى النفس وتقويه .

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، وخاطب جميع الناس على السواء « والمعروف أن الاستعداد لتقبل الحق عند الناس مختلف ، فالنفس الصافية تستجيب للهدى وتفتح قلبها لاشعاعه ويكفيها فى الانصياع اليه اللمحة والاشارة ، اما النفس التى ملأها الشك والتردد فهى فى حاجة الى صيغ التأكيد وبرهان الحجة ، اما النفس الجاحدة

المنكرة فهى فى حاجة الى مطارق الزجر وتأكيد الخبر وتقرير الحكم فى أكمل صورة » (١) •

فالقسم فى كلام الله تعالى لتأكيد الحكم وتقويه الحجة وسوق الأدلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضيحه ، والقسم واليمين واحد وسمى الحلف يمينا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف •

وفى القسم ثلاثة أمور :

١ ـ اداة القسم •

٢ ـ المقسم به •

٣ ـ المقسم عليه •

أولا : اداة القسم :

الصيغة الأصلية للقسم هى « اقسم » أو أحلف » مع مع تعدى الفعل بالباء الى المقسم به • كقوله تعالى (وأقسموا بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت) (النحل ٣٨) •

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٨ بتصرف •

ولما كان فعل القسم يكثر فى الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى (والليل اذا يغشى) (الليل ١) ، وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله تعالى (وتالله لأكيدن أصنامكم) (الأنبياء ٥٧) ، وهذا قليل أما الواو فكثيرة .

ثانيا : المقسم به :

أما المقسم به فهو أمر جليل دائما ، ولله وحده ان يقسم بما شاء أما العباد فليس لهم ان يقسموا بغير الله ، روى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف بغير الله فقد كفر ، أو اشرك » ، والمعنى من حلف بغير الله معظما له تعظيم الله فقد كفر أو أشرك . وقد أقسم الله تعالى فى القرآن بذاته وبمخلوقاته .

قال تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) (المعارج ٤٠) .

ومما أقسم الله به مخلوقاته كالشمس والقمر والليل

والنهار والفجر والنجوم والضحى والتين والزيتون وطور سينين وغيرها .

قال تعالى (والشمس وضحاها * والقمر اذا تلاها) (الشمس ١٠) .

وقال تعالى (والفجر * وليالى عشر * والشفع والوتر) (الفجر ١ ـ ٣) .

ثالثا : المقسم عليه :

اما المقسم عليه فيراد توكيده وتحقيقه ولاسيما اذا كان من الأمور الغائبة والخفية اذا أقسم على ثبوتها ، مثل (والنجم اذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحى يوحى) (النجم ١ ـ ٤) .

وجواب القسم يذكر تارة وهو الغالب ـ وتارة يحذف مثل قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة ١ ، ٢) .

فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد : (أيحسب

الانسان ان لن نجمع عظامه) (القيامة ٣) ، والتقدير لتبعثن ولتحاسبن .

معنى لا أقسم :

ادخلت (لا) النفية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم * وانه لقسم لو تعلمون عظيم) (الواقعة ٧٥ ، ٧٦) وقوله سبحانه (فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر اذا اتسق) (الانشقاق ١٦ – ١٨) وقوله عز شأنه (فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * انه لقول رسول كريم) (الحاقة ٣٨ – ٤٠) وقوله سبحانه (لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة ١ ، ٢) .

وقد ذكر المفسرون فيها عدة آراء .

الأول : ان لا نافية لمحذوف يناسب المقام والتقدير مثلا لاصحة لما تزعمون من انكار البعث والجزاء ثم استأنف فقال (أقسم بيوم القيامة) و (بالنفس اللوامة) أنكم ستبعثون .

الثانى : ان لا زائدة وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : أيحسب الخ والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

الثالث : قول أبى مسلم أن (لا) ههنا لنفى القسم كأنه قال لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكننى اسألك غير مقسم اتحسب انا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموت ؟ فان كنت تحسب ذلك فاعلم انا قادرون على أن نفعل ذلك ، ا هـ . فظاهر الكلام نفى القسم لكن المراد بهذا النفى التوصل الى التأكيد وكأنه يقول ان الأمر بين فلا احتاج الى أن أقسم عليه وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد (١) .

المقسم عليه فى القرآن :

أقسم الله على أصول الايمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على صدق التوحيد كقوله (والصافات

(١) دكتور عبد الله شحاته : فى نور القرآن ص ١٦٨ مطبعة الهيئة العامة للكتاب .

صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا * ان الهكم لواحد) (الصافات ١ ـ ٤) ، وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم * وانه لقسم لو تعلمون عظيم * انه لقرآن كريم) (الواقعة ٧٥ ـ ٧٧) وتارة على ان الرسول حق كقوله (يس * والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين) (يس ١ ـ ٣) .

وتارة يقسم على الجزاء والوعد والوعيد كقوله (والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا * انما توعدون لصادق * وان الدين لواقع) (الذاريات ١ ـ ٦).

وتارة يقسم على حال الانسان كقوله (والليل اذا يغشى * والنهار اذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * ان سعيكم لشتى) (الليل ١ ـ ٤) .

والمتتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة (١) .

---

(١) انظر الاتقان للسيوطى ٢/١٣٥ فقد اتى بشواهد متعددة للاقسام المذكورة .

المقسم به فى القرآن

الملاحظ أن الله عز وجل أكثر من القسم فى الآيات المكية لأن أهل مكة انكروا الوحى وقاوموا الرسالة فكان مقتضى الحال يتطلب هذا اللون من الأسلوب البليغ .

وقد أقسم الله عز وجل بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع مثل قوله سبحانه (فوربك لنسالنهم أجمعين * عما كانوا يعملون) (الحجر ٩٢ – ٩٣) . وقوله سبحانه (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن) (التغابن ٧) .

القسم بالمخلوقات

اقسم القرآن بكثير من مخلوقات الله وبالملائكة وبالنبى وبمظاهر الكون كالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر اذا اتسق ، وبالعصر ، وبالضحى ، والشمس ، والبلد ، ووالد وما ولد ، وبالفجر والتين ...

قال الامام بدر الدين الزركشى فى كتابه البرهان فى علوم القرآن .

فان قيل : كيف أقسم الله بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا الا نقسم بمخلوق ؟

قيل : فيه ثلاثة أجوبة •

أحدها : ـ انه على حذف مضاف أى (ورب الفجر) و (رب التين) وكذلك الباقى •

والثانى : ـ ان العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون •

والثالث : ـ ان الاقسام انما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس فوقه شىء فاقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارىء وصانع (١) •

وقال ابن أبى الأصبع فى اسرار الفواتح : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل اذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل (٢) •

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤٢/٣ •
(٢) الاتقان للسيوطى ١٣٤/٢ •

وقسمه تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) (الحجر ٧٢)، ليعرف الناس عظمة الرسول عند الله ومكانته لديه .

والقسم بالشىء لا يخرج عن وجهين اما لفضيلة أو لمنفعة (١) .

فالفضيلة كقوله تعالى (وطور سينين * وهذا البلد الأمين) (التين ٢ ، ٣) .

والمنفعة نحو (والتين والزيتون) (التين ١) .

وقال بعضهم : أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء بذاته كالآيات السابقة وبفعله نحو (والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها) (الشمس ٥ - ٧) وبمفعوله (٢) نحو (والنجم اذا هوى) (النجم ١) . (والطور وكتاب مسطور) (الطور ١ ، ٢) .

---

(١) البرهان ٣/٤٢ نقلا : عن الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى « كنز اليوافيت » والاتقان ٢/١٣٤ .

(٢) الاتقان ٢/١٣٤ .

رأى جديد فى القسم بالمخلوقات

رأينا أن العلماء والمفسرين (١) ذهبوا الى أن الله أقسم بمخلوقاته لبيان نواحى العظمة فيها وجلال قدرها وعظيم نفعها ولكن العالم الهندى عبد الرحمن فراهى يذهب مذهبا جديدا خلاصته أن القسم اذا كان بمخلوقات الله فليس لتعظيمها وانما للاستشهاد بها وسياقها مساق الدليل على صحة الكلام وصدقه ، فهى بمثابة لفت النظر الى التأمل فى ملكوت السموات والأرض وارشاد المخاطبين الى بديع صنعة الله فى الكون . ونحن نلخص رأى الأستاذ عبد الرحمن فراهى بما يلى :

لما (٢) كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كثر القسم القسم بها ، ولذلك ظن من قل التفاته الى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الاشهاد لا يكون الا بالمعبود على جهة

(١) انظر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير مفاتيح الغيب والسيوطى فى الاتقان ، وابن القيم الجوزيه فى كتابه (التبيان فى أقسام القرآن) وغيرهم من المفسرين عند تفسير (والتين والزيتون) و (لاأقسم بيوم القيامة) .. وغيرها .

(٢) استفدت فى هذا الملخص من جهد الدكتور بكرى شيخ أمين فى كتابه التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٩ وما بعدها .

التعظيم ، ولكنك اذا سرحت النظر فى كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم استشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولم يعظموها ، وانما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهدا على أقوالهم .
وضرب المؤلف على ذلك عددا من الأمثلة من الشعر العربى كقول الراعى : —

ان السماء وان الريح شاهدة والأرض تشهد والأيام والبلد
لقد جزيت بنى بدر ببغيتهم يوم الهباءة يوما ما لهم قود

وكقول عنترة : —

والخيل تعلم والفوارس أننى فرقت جمعهم بضربة فيصل

فقد رأيت فى هذه الأمثلة أنهم استشهدوا بالسماء والريح والأرض والأيام والبلد ، والخيل والفوارس ، وليس المراد الا أنك لو سألتهن ونطقن لشهدن على دعواهم .

ومن هذا الأسلوب ما قاله الفضل بن عيسى بن أبان فى وعظه (سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس

أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا » .

ويتساوى التعبير بكلمة « يشهد » أو « يعلم » أو ما يشبههما بالألفاظ الصريحة الدالة على القسم كواو القسم ، ولعمر ، أو ما يمثالهما . ومثل ذلك قسم الهجرس حين قتل جساسا قاتل أبيه فقال : « وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونصليه ، وسيفى وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر اليه » . فقد أقسم بهذه الأشياء استدلالا بها ، كأنه قال : فكيف أترك قاتل أبي وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب . فذكر فى قسمه ما يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به ، كما مثل الفارابى بشواهد من هذا القبيل من شعر طرفة بن العبد ، والحصين بن حمام فى رثاء نعيم بن الحارث خليله ، واستشهد بكلام ديماستنس أعظم بلغاء اليونان ، ويوليوس الشاعر اليونانى على أن هؤلاء الناس من عرب وغير عرب يقسمون بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها ، أو لكونها ،

مقدسة ، بل لتكون شاهدا على ما يقولون ودليـــــلا على ما يتكلمون .

ثم جاء الكاتب الى أقسام القرآن فبين أنها لا تـــكون للتعظيم الا اذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره ، وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال .

وفى فصل طويل راح يأتى بالبرهان تلو البرهان على أن بعض ما أقســـم به الله ليس لتعظيمه وانمـــــا لمحض الاستدلال به ومن جملة ما قاله :ـ

« ما تهتدى اليه من حمل النظير على النظير ، وتفسير الآيات بعضها ببعض فانك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة على أسلوب الآية والعبرة ، وكلها اشهاد ـ أى اقسام ـ لمن يتفكر فيهـــا ، قال تعـــالى (ان فى خلق الســـموات والأرض واختـــلاف الليـــل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من الســـماء من ماء فأحيــــا به الأرض بعد موتهـــا وبث فيهـــا من كل دابة وتصريف الرياح والســـحاب المسخر بين الســـــماء

والأرض لآيات لقوم يعقلون) (البقرة ١٦٤) • ومثل هذا كثير • فيذكر الله اياته ويحتج بها • ثم ترى هذه الآيات استشهد بها القرآن على أسلوب القسم ، فأقسم بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والفجر والضحى ، والريح والسحاب ، والجبال ، والبحر ، والانسان ، والوالد والولد والذكر والأنثى ، والشفع والوتر ، فكونها آيات دالة له نظير ، ولا سبيل الى ارادة تعظيمها •

ومن الأدلة قوله : ان العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس ، ولا سيما الذى ليس له كبير تقدس ، كالخيل العادية ، والريح الذارية •

وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذللة طائعة • ففى نفس القسم بها دلالة على أن المراد بها محض القسم بها •

ومن الأدلة قوله : ان ما يتبع المقسم به من التنبيه على

كون المقســم به دليلا للعقلاء قوله تعالى (والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل اذا يسر * هل فى ذلك قسـم لذى حجر) الفجر ١ ــ ٥ هذه الجملة الأخيرة (هل فى ذلك قسم لذى حجر) تشبه ما يرد فى القرآن بعد ذكر الدلائل ، كقوله تعالى فى سورة النحل (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) النحل ١٢ ، أو كمـــا جاء فى سورة طه (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) ١٢٨ ، أو كما جاء فى سورة آل عمران (ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ١٣ وهذا كثير • فهكذا التنبيه بعد القسم فى سورة الواقعة حيث قال (فلا أقســم بمواقع النجـوم * وانه لقسم لو تعلمون عظيم) ٧٥ ، ٧٦ أى أن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة ، فصرح بعظمة القســـم لا بعظمة المقســـم به (١) ، وفرق كبير بينهما •

---

(١) امعان فى أقسام القرآن ص ٣٩ •

خاتمة في : تلاوة القرآن

القرآن كلام الله القديم ، وهو حديث الله الي الخلق
قال الامام أحمد بن حنبل : اذا أردت أن أكلم ربى فعلت
واذا أردت أن يكلمنى ربى فعلت قيل كيف ذلك ؟ .

قال اذا أردت أن يكلمنى ربى قرأت القرآن فهـو
كلام ربى ، واذا أردت أن أكلم ربى دخلت الصـلاة فهى
مناجاة لله .

وقراءة القرآن سنة من سنن الاسـلام ، والاكثار

منها مستحب ، حتى يكون المسلم حى القلب مستنير الفؤاد ، بما يقرأ من كتاب الله ، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد الا فى اثنتين رجل اتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار » .

وتلاوة القرآن مع حسن القصد واخلاص النية عبادة يؤجر عليها المسلم ، روى الترمذى عن ابن مسعود أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال : « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها » .

وروى مسلم عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقرءوا القرآن فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هجر القرآن ونسيانه فقال ـ فيما رواه البخارى ومسلم ـ :

« تعاهدوا القرآن فوالذى نفس محمد بيده لهو أشـد تفلتا من الابل فى عقلها » •

آداب التلاوة

يستحب لقارىء القرآن أن يرتله ترتيلا حسـنا وأن يعطى الحروف حقها من المد والادغام قال تعـالى (ورتل القرآن ترتيلا) •

ولا يتهيب المسلم من تلاوة القرآن ، ولا يتخوف من اللحن بل عليه أن يقرأ وأن يطيل صـحبته للقرآن حتى يتعود على القراءة الحسنة بالتكرار والممارسة والتعـود قال تعالى (ولقـد يسرنا القرآن للذكر فهـل من مدكر) (القمر ١٧) •

وحبذا لو عرفت أيها المؤمن بعض قواعد التجويد ، أو تمرنت على قراءة القرآن أمام أحد الحفـاظ والقراء ليرشدك الى الأداء السليم •

ومن أدب التلاوة أن يكون القارىء على وضـوء وأن يبدأ تلاوته بقوله : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم » •

وأن يتدبر ما يقرأ ، وأن يقرأ بخشوع وسكينة ووقار وأن يتأثر بآيات القرآن وعدا ووعيدا ، وأن يتجاوب مع المعانى بمشاعره وعواطفه دعاء واستغفارا ورحمة وعذابا .

ومن أدب التلاوة أن يحسن القارئ صوته بالقراءة فان الصوت الحسن أوقع فى النفس وأدعى الى التأثر والخشوع روى ابن حيان وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » وروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المحتوى

الفصل الأول

تاريخ التفسير

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثانى

اعجاز القرآن

الفصل الثالث

من علوم التفسير

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦٠٤/١٩٧٥

عدد ممتاز

الثمن : ٢٠ قرشا

• هذا الكتـــاب

مفتاح لمعرفة التفسير ودليل نافع لفهم القرآن وادراك جماله وجلاله .
يؤرخ لنشأة التفسير ويتابع تطوره عبر العصور الاسلامية ويقارن بين التفسير فى القديم والحديث .

ويوضح عناصر الجمال الفنى فى القرآن ويبين وجوه اعجازه وبلاغته وأخيرا يقدم فكرة جديدة عن القصة والمثل والقسم فى القرآن .

العـــدد القـــادم :

العرب والحضارة الأوربية (طبعة ثانية

تأليف : محمد مفيد الشوباشى